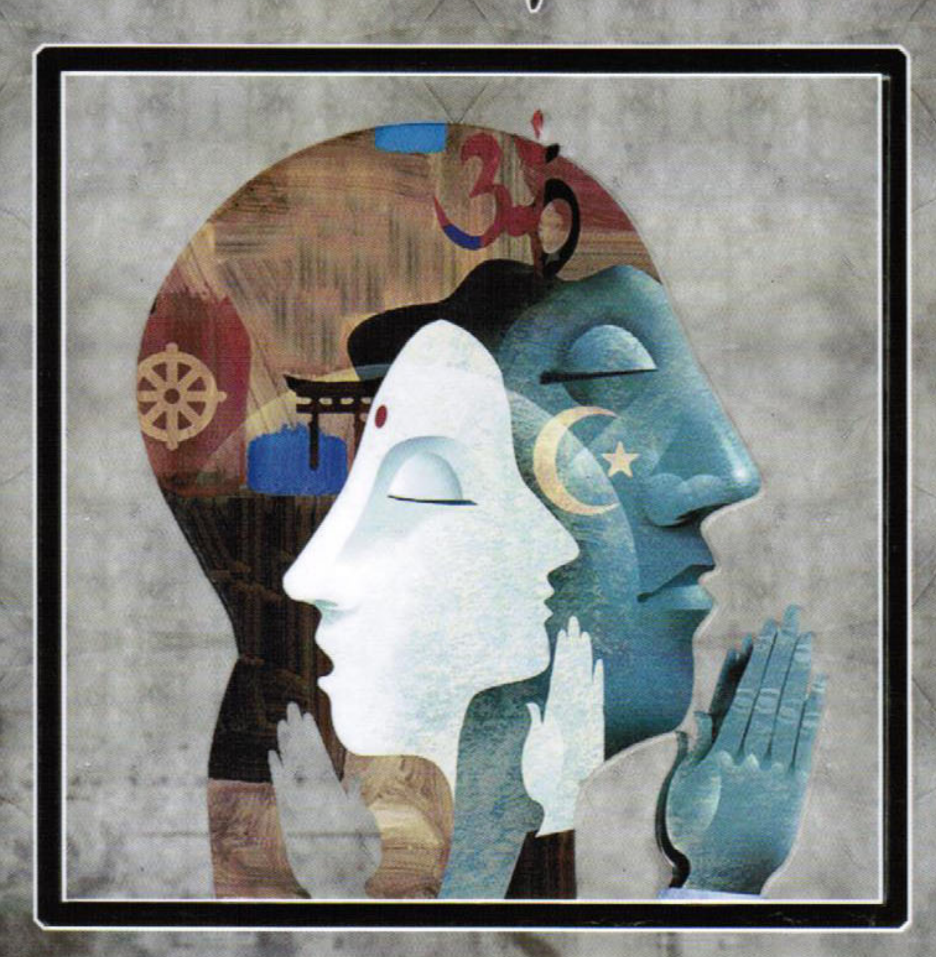
الطبعة العاشرة

سلطان موسى الموسى

أقوَمُ قِيلا



بعقلك أيضاً ...

فهنا القرآن والإنسان ..!

أَقوَمُ قِيلا

سلطان موسى الموسى

الطبعة العاشرة

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الإهداء..

إهداء إلى أبي الغالي

موسى بن عبدالله الموسى

والذي كان يمنعني من قراءة كتب الأديان حين

كنتُ صغيراً خوفاً علي..

وإهداء إلى أمي الغالية

البندري بنت صالح العشيوي

والتي كانت تمنعهُ من ذلك..

المقدمة

كانوا ثمانية.. وتاسعهم كلبهم في «الاستراحة» عندما أردت أن أمازحهم وأسألهم كعادتي عن الأديان.. بدؤوا في معاتبتي على أن أسئلتي غالباً ما تكون صعبة جدّاً عليهم.. لذلك طلبوا مني هذه المرة أن لا أسألهم عن بوذا أو الهندوس.. فاستجبت لهم وقررت أن أسهلّها عليهم وأن لا أسألهم إلا عن الإسلام..

فقلت لهم.. حسناً إذاً، سؤالي الأول لكم سهلٌ جدّاً بحكم أنكم جميعكم مسلمون وتصلون في اليوم الواحد خمس مرات..

قالوا: ماهو السؤال؟

قلت: ماذا تعني جملة «تعالى جدك» التي تقرؤونها بدعاء الاستفتاح في بداية كل صلاة؟

لم يعرف أحد منهم الإجابة.. حاول صغيرهم وقال: هل كلمة (جدك) هنا لها نفس الدلالة التي نستخدمها مع والد الأب..؟

فقلت له: استغفر ربك يا صاحبي فهو الذي قال: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [سورة الجن آية ٣].

كنت أظن أنني سهلتها عليهم.. لم أكن أعلم أنهم لايعلمون ماذا يقولون في صلواتهم..!

أردت أن أغير السؤال.. فقلت لهم: السؤال الثاني سيكون أسهل بكثير بحكم أنكم تقرؤون أذكاركم كل يوم..

قالوا: ماهو السؤال.. ونتمنى فعلاً أن يكون أسهل؟

قلت: ماذا تعني «غاسقٍ إذا وقب» التي نقرؤها دائماً في المعوذات..؟

وأيضاً لم يعرف أحد...فلم أنتظر كثيراً وقررت أن أغير السؤال بسؤالٍ آخر أسهل بكثير

فقلت: هل تعلمون ماهي أكثر آية وردت في القرآن..؟

وبعد تفكيرٍ طويل.. أجاب أغلبهم هذه المرة ولله الحمد.. فقالوا: إن الآيةَ الأكثر تكراراً هي قول الله ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [سورة الرحمن آية ١٣] حيث تكررت في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة..

فرحت كثيراً وقلت: أحسنتم.. إجابتكم صحيحة.. وسؤالي الأخير لكم ماذا تعني كلمة ﴿ ءَالَآءِ ﴾ التي وردت إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن..؟

ولم يعرف أحدٌ منهم الإجابة..!!

لست ألومهم كثيراً.. فقد كنت مثلهم في الماضي.. لا أتأمل ولا أتدبر ولا أتفكر.. المهم بالنسبة لي أنني كنت أصلي وأصوم.. رغم أني أعلم بأن الله وجّه معظم آياته إلى «أولي الألباب» وكان دائماً ما يقول سبحانه.. أفلا يتفكرون؟ أفلا يعقلون؟ أفلا يتدبرون؟... ثم يسأل لستة مرات فيقول جل جلاله (فهل من مُدّكر؟.. فهل من مُدّكر؟.. فهل من مُدّكر..؟.. فهل من مُدّكر؟) [سورة القمر]..

شدد الله سبحانه على أهمية معرفتنا لمعاني كلامه.. لأن الله لم يخاطبنا إلا بهذا الوحي.. ولو لم نتأمله ونعرف معناه.. لما استطعنا أن ندرك عظمة من أنزل هذا الكلام.. ولو لم تكن معرفة معاني النصوص المقدسة مطلباً ربانيّاً.. لما كان أول ركنٍ من أركان الإسلام هو أن يقول الإنسان شهادة ألا إله إلا الله بشرط أن يكون (عالماً) بمعناها وعاملاً بمقتضاها.. ولاحظ أن العلم بالمعنى أهم من العمل بالمقتضى في الترتيب..

***

كنت في «لندن» عندما تعرضت للموقف الذي غيّر حياتي بهذا الخصوص.. تحديداً حين التقيت مصادفةً برجلٍ من المغرب العربي في حديقة «الهايد بارك» الشهيرة.. سلّم علي ورحب بي رغم صغر

سني وقتها مقارنةً به.. فقد كنت في الثامنة عشرة من عمري بينما كان هو في عمر أبي تقريباً.. وأخبرني أنه يعيش في «لندن».. وحين أخبرته أنني من «السعودية» رحّب بي كثيراً..

كنت أقضي مع عائلتي إجازة «عيد الفطر» هناك.. فقررت أن أسأله وبحكم أننا خرجنا للتو من شهر رمضان عن كيفية معاناتهم مع الصيام في «أوروبا» التي لاتغرب شمسها بسهولة.. ليفاجئني بإجابته حين قال: أنا لا أصوم يا ولدي ولا أصلي..

فلم أكتم تعجبي وسألته لماذا..؟ خصوصاً وأن اسمه كان «محمد» كما أخبرني..؟

فقال لي: (أنا ملحد ولا أومن بوجود خالق)..

ومازلت أتذكر كيف قالها باسماً..!

كانت هذه المرة الأولى التي أواجه فيها شخصاً ينكر وجود الله.. وكنت أتعجب كيف يصل إنسانٌ إلى هذه المرحلة.. قد أتفهم وجود ديانات أخرى.. ولكن إلحاد..؟ ما الذي يدفع إنساناً إلى هذا الاعتقاد.. قررت أن أسأله عن معتقده.. فلم يرحمني ولم يرحم صغر سني.. إذ بدأ يطرح علي مجموعة من الأسئلة التي تهدف إلى التشكيك في وجود الله وفي البعث وفي القرآن وفي نبوة محمد.. ولم أكن أعرف كيف أجيب عليها.. فعرفت حينها أنه انتصر بسبب

جهلي.. وبسبب ثقتي العمياء من كوني مسلماً من بلاد الحرمين ومهبط الوحي.. وبأني قد درست في المدرسة من المواد الدينية ما نسبته (٦٠٪) من مجمل المواد على امتداد اثنتي عشرة سنة.. لم أكن أدري أني كنت حينها مثل أصدقائي.. لا أعلم حتى ماذا يعني دعاء الاستفتاح..!

كانت مثل الصفعة على وجهي.. وسبحان الذي ربط على قلبي بأن جعلني أبحث وأحاول أن أستكشف بنفسي الدين مرة أخرى.. وأبحر في معانيه وإعجازاته.. فلربما لو كان شخصٌ غيري لانصاع لشبهات هذا الملحد ليكون أحد ضحاياه..

ومن هنا بدأت رحلتي صغيراً في عالم البحث والقراءة عن ظاهرة الإلحاد وحقيقة الأديان.. كُنت أريد أن أقنع ذاتي وأرضيها لمعرفة حقيقة الإسلام ولماذا هو الدين الحق؟.. وما هو الفرق بين الإسلام وغيره من الديانات السماوية كالمسيحية واليهودية..؟ ولماذا نُسخت أديانهم بدين جديد..؟

أحببت جدّاً المجال الذي بدأت أقرأ فيه.. وبالفعل تغيرت نظرتي في أمور كثيرة بعدما صرت أقرأ وأكتشف الكتب التي تخاطب العقل وتلبي احتياجاته.. وليس ما اعتدت عليه من كتب الحشو الديني..!

أردت أن أخوض تحدياً آخر في حياتي بأن أتعمق أكثر في مجال البحث عن الأديان وتقصي حقائقها ومشاهدة المناظرات والحوارات التي يقيمها متخصصون ضد أصحاب الديانات الأخرى.. واستمر الحال لأكثر من خمس سنين.. وأنا أبحث وأقرأ.. وفي كل مرة أستحضر في رأسي أسئلة ذلك الملحد.. إلى أن توصلت إلى قناعة كبيرة بديني الذي لم أكن أعرف حتى ماهي أسباب صحته غير أنني ولدت عليه..!

والحمد لله الذي احتواني إلى أن اختلف الحال.. وأصبحت أسعى لأن أدرك عظمة كل جملة في القرآن الكريم وما تُخفي خلفها من أسرار وإعجاز..

وها أنا اليوم وقد جلبت نتاج بحثي وقراءاتي في هذا الكتاب، لأحاول أن أسد بها الثغرات التي يستغلها الملحدون وأصحاب الديانات الأخرى للتمكن من الذين لايملكون أبجديات الرد..

فإن أصبت فلي أجران.. وإن أخطأت فلي أجر اجتهادي.. وإن أحسنت فبتوفيق الله.. وإن أسأت فمن نفسي والشيطان.. وإن اختلفت معي فاحترم رأيي.. وثق تماماً بأني سأبادلك شعور الاحترام.. وتذكر أننا نهدف جميعاً إلى رفعة كلام الله مهما اختلفنا.. فأنا أقولُ قِيلا.. وأنت تقولُ قِيلا.. ليبقى كلام الله أقومُ قِيلا..!

سلطان موسى الموسى

الفصل الأول

حقيقة وجود الإله...

الحمد لله الصمد.. الذي لم يلد ولم يولد... فكوننا ولدنا ونحن نعرف الله حق المعرفة فهذا يعني أننا في نعمة عظيمة بل نحن محظوظون لأننا اختصرنا قروناً من تاريخ البشرية كان الإنسان فيها يسعى ويحاول جاهداً للبحث عن خالقه.. ولولا قناعته بأنه موجود لما بحث عنه ولكنها الفطرة.. نعم الفطرة التي ولد عليها والغريزة التي في داخله هي من دفعته إلى ذلك.

خلقنا الله واستودع فينا غرائز واحتياجات مختلفة وفرض علينا أن نلبي نداءات هذه الغرائز والاحتياجات، فأنت أيها الإنسان تذهب للأكل تلبيةً لاحتياج جسمك للطعام، ومثله في شرب الماء، وتحاول بقدر المستطاع تلبية النداءات الداخلية لاحتياجات جسمك مثل ممارسة الجنس والخلود إلى النوم بل حتى الذهاب إلى دورات المياه.. جميعها ما بين احتياجات جسدية أو غرائز فطرية وضعها الله في داخل الإنسان لتصدر نداءات وأصواتاً للدماغ فتفرض عليه تلبيتها.

كذلك حاجة الإنسان لوجود إلهٍ يعبده، هي أيضاً غريزة فطرية وضعها الله داخل البشر وقد سعت البشرية لتلبية ذلك النداء الذي يبعث للنفس شعوراً بحاجتها لتقديس شيءٍ ما.. وقد ظلت هذه الغريزة تصدر أصوات النداء للعبادة والتقديس عبر التاريخ، ومن هنا انطلقت رحلة البحث، فالقرآن الكريم يخبرنا عن رحلة النبي إبراهيم عليه السلام في البحث عن ربه في شبابه وقبل قيام الحجة،(١) حيث أخبرته فطرته السليمة بأن هناك إلهاً أحق بالعبادة من هذه الأصنام.. فمرة قال إنه هو الكوكب ثم قال إنه هو القمر ثم قال لا إنه الشمس لأنها أكبر ولكنهم جميعاً أفلوا وهو لا يحب الآفلين..

استمرت رحلة البحث الفطرية للبشر فهناك من بحث وتوصل لحقيقة وجود الله بعقله وفطرته وقد لبى احتياج جسده في المكان السليم وهناك من لم يسعفه عقله للتوصل إلى الإله الحق فقام بتلبية احتياجه للعبادة في أماكن خاطئة وذلك بابتداع تماثيل وأصنام وآلهة ومن ثم تقديسها وذبح القرابين لها ومن هنا جاءت حكمة الله في ابتعاث الأنبياء ليقـوّموا فطرة هؤلاء الناس ويصححوا مسارهم الديني وذلك بدعوتهم للعدول عن تقديس وعبادة التماثيل والأصنام والتوجه إلى عبادة الإله الحق.. فمنهم من استجاب لذلك ومنهم من لم يستجب.. والله غنيٌّ حميد

---

١ - أنظر إلى تفسيرات سورة الأنعام للقرطبي والطبري والبغوي.

خلق الله الجن والإنس ليعبدوه، والله أعطى كل شيءٍ خلقهُ ثم هدى.. نعم هي تلك الهداية التي تولد مع الإنسان وتجعل في داخله صوتاً يخبره أنه بحاجة للعبادة التي خُلق من أجلها، لذا لن تجد أقواماً أو حضارة أو شعوباً سواء في الماضي أو في الحاضر إلا وتجد أن لديهم ديانة، وحتى عند قبائل الأمازون وما وراء البحار وقبائل الماساي والزولو وحتى في الحضارات البائدة كالحضارة الرومانية والإغريقية والفرعونية وحضارة المايا وبابل وسومر وآشور وغيرهم كثير، من المستحيل أن لاتجد لديهم مقدسات وآلهة يعبدونها لأن العبادة غريزة لم يكن للبشرية منأى عنها، فطالما أنك إنسان فأنت في حاجة إلى ذلك.

وهذا ما دفع الإنسان قديماً للبحث والتقصي ومحاولة اكتشاف حقيقة خالقه الأحق بالعبادة.. فهناك في أذربيجان في القرن السادس قبل الميلاد وُلد «زرادشت» مؤسس الديانة الزرادشتية التي لاقت رواجاً كبيراً في أذربيجان وكردستان وإيران. كان «زرادشت» كثير الانطواء على نفسه لأنه يهوى التأمل في الكون وسر الخلق والوجود حيث لم يكن راضياً على ما يعبده قومه من آلهة لأن قناعته الذاتية وصوت النداء الفطري في داخله يخبره بوجود إله أوحد يستحق العبادة والتقديس عوضاً عن عبادة الأحجار والنار، لم تعجب آراء «زرادشت» الكهنة من حوله واعتبروا أن

بها شيئاً من التمرد على مقدساتهم وآلهتهم، فبادروا إلى التآمر عليه وحياكة المخططات ضده إلى درجة إقناع الملك «كاشتاسب» بوضعه في السجن بتهمة الهرطقة والتعدي على تعاليم الدين، وهناك في السجن زاد «زرادشت» من تأملاته وتدوين وصاياه العشر حتى أصيب فرس الملك بداء عضال وبعد فشل جميع الكهنة بصلواتهم ودعواتهم ومحاولاتهم لعلاج الفرس. خطرت للملك «كاشتاسب» فكرة إخراج «زرادشت» من السجن وذلك لعلمه السابق بأن «زرادشت» قد درس الطب لعله يساهم في شفاء فرسه الذي يعني له الكثير، وبالفعل استطاع «زرادشت» أن يعالج فرس الملك حتى تماثل للشفاء تماماً، فما كان من الملك إلا أن آمن به واعتنق ديانته بل وأمر الجميع أن يعتنقوها طوعاً أو كرهاً وساهم في نشر الزرادشتية على الشعوب المجاورة في تلك المنطقة لتكون بذلك إحدى أشهر المحاولات للبحث عن الإله الحق.[1]

ولم يقف بحث الإنسان عن خالقه الحقيقي هنا، فقد كان الملك السادس لمملكة بابل «حمورابي» عام (١٧٩٠ ق.م) أحد أشهر ملوك التاريخ ومما ساهم في شهرته هو الدستور والشريعة التي وضعها للحكم آنذاك والتي تسمى اليوم بـ (شريعة حمورابي) وقد

١- انظر كتاب قصة الديانات لسليمان مظهر ص ٢٨٢.

أثارت هذه الشريعة والتي وجدت منقوشة على حجر الديوريت عام (١٩٠٢م) جدلاً واسعاً في أوساط معتنقي الديانات السماوية وذلك نظراً لوجود تشابه كبير بين قوانينها وبين قوانين وشرائع الديانات السماوية خصوصاً وأن الملك «حمورابي» مات قبل بعثة «موسى وعيسى ومحمد» عليهم السلام.



«صورة لشريعة الملك حمورابي»

فغير كون هذه الشريعة تدعو لعبادة إله أطلق عليه حمورابي إسم الإله (بل) إلا أنها تحتوي على حدود وقوانين تتشابه مع الديانات السماوية جدّاً وتحديداً مع التوراة، مثال ذلك ما وُجد منحوتاً عليها من قوانين تنص على أن العين بالعين والسن بالسن والقاتل والزاني المحصن يقتلان وغيرها من قوانين البيع والشراء وحفظ النفس والعرض التي تكفل للإنسان حياة عادلة وكريمة.[1] اعتبرت هذه المنحوتة كأول قوانين وُضعت في التاريخ، وكل ما جاء فيها لم يكن مصادفة كونها تسبق تعاليم الديانات السماوية، بل هي نتاج فطري للتأمل ومحاولات العقل للتوصل لمنطق وحقيقة الغريزة الإنسانية التي تدعوه للبحث عن خالق الكون وكيف يجب أن تكون تعاليمه، فأنا بالفطرة أستطيع أن أعرف الأمور السيئة والمضرة في هذه الحياة وبالفطرة أعرف كيف أكون عادلاً وكيف يجب علي ألا أسرق ولا أعتدي على أحدٍ ولا أزني ولا أكذب، فالحلال بيّن كما هو الحرام، والله هدانا النجدين منذ أن خلقنا، جئنا إلى هذه الحياة ونحن نعرف كيف نميز بين الخير والشر، فبالعقل نعرف ونميز كل شيء، والعقل هو من يخبرنا بأنه طالما هنالك عدل فلابد من وجود عادل.. وطالما أن هنالك مخلوقاً فلابد من وجود خالق، هي سلسلة لابد من أن نقتفي أثرها حتى تكتمل وطريق لابد من أن نسلكه حتى نصل لآخره.

---

١ - انظر Hammurabi by L. W King.

والأمثلة في ذلك كثيرة جدّاً فليس «زرادشت وحمورابي» وحدهما من قاربا حقيقة الخالق في تأملاتهما، ففي اليونان القديمة إبان الحضارة الإغريقية في القرن التاسع قبل الميلاد، قام الشاعر والفيلسوف «هوميروس» مؤلف الملحمتين (الإلياذة والأوديسة) ومجموعة شعراء آخرين بتأليف ما يُعرف اليوم (بالميثيلوجيا الإغريقية) وقد توصلوا خلالها إلى وضع آلهة في مجالات مختلفة، فيوجد إله للبحر وإله للتجارة وإله للنار وإله للموت وغيرهم كثير وجميعهم خاضعون لكبير الآلهة الذي يعرف باسم «زوس» وهو إله الرعد والبرق أيضاً، وبالنظر إلى الفكرة التي توصل إليها شعراء الإغريق نستطيع أن نستشف أن فكرة الدين والإله وحاجة الإنسان للعبادة هي هاجس نفسي لم يكن ليهدأ بال من ولدوا وهم يفتقدونه، وعلى الرغم من أن الميثيلوجيا الإغريقية لاترتقي لأن تقارع الديانات السماوية وغيرها من المحاولات الأكثر جدية كونها تحتوي على مبالغات مسرحية تقربها لأن تكون تحفة فنية أكثر من كونها ديانة وثنية إلا أنها محاولة معتبرة استطاعت أن تتوصل لفكرة قريبة من الأديان السماوية وذلك بوجود إله خالق معبود تحته مجموعة آلهة مختصين في مجالات مختلفة وهي شبيهة بفكرة الملائكة واختصاصهم بمجالات مختلفة كوجود ملاك للموت وملاك للمطر وملاك للرحمة وما إلى ذلك.

وما يميز الميثيلوجيا الإغريقية عن غيرها من سائر الديانات البائدة أنها ما تزال حية بيننا اليوم بأسماء آلهتها التي أصبحنا نستخدمها على أمور مختلفة في الحياة ومعظمنا لايعلم عن ذلك، لذا قمت بجمع أبرز أسماء الآلهة التي لانزال نستخدمها إلى الآن -على حد علمي-:

جبل أولومبوس: وهو مقر اجتماع الآلهة الإغريقية، الجبل لايزال موجوداً في اليونان ومن اسمه اشتقت تسمية الألعاب الأولمبية بهذا الاسم.

أثينا: وهي إلهة الحكمة وإليها تُنسب العاصمة اليونانية.

أطلس: إله الأرض ومن اسمه اشتقت تسمية جبال أطلس في المغرب كما يرتبط اسمه بغالبية الأمور الجغرافية مثل أطلس الجبال والبحار.

هيرمز: إله التجارة حيث تحمل إحدى أشهر ماركات الأزياء اسمه وشعارها الذي تظهر به صورة هيرمز وهو يجر عربته.

أوراكل: وهو الوسيط بين البشر والآلهة في نقل المعلومات بينهم وإليه يُنسب أحد أشهر برامج إدخال البيانات التي تعمل كوسيط بين إدارات المنشآت.

نايكي: وهي إلهة النصرة وإليها تُنسب إحدى أشهر ماركات الملابس الرياضية.

تايتانك: الجبار وسلالته هم التايتنس أي الجبابرة وعليهم تم تسمية أشهر سفينة غارقة.

بوسايدون: إله البحار وإليه تمت تسمية سفينة بوسايدون الأسطورية الغارقة بهذا الاسم حيث أنتجت هوليوود الكثير من الأفلام عن هذه الحادثة جميعها تحمل اسم هذا الإله آخرها كان في عام (٢٠٠٦م).

هيليوس: إله الشمس وهو من أطلقت وكالة ناسا اسمه على المركبة الفضائية عام (١٩٧٤م) لدراسة العمليات الشمسية.

دينيسوس: إله الخمر ويحمل اسمه أحد أبرز أعياد اليونانيين والذي يقام مرتين في العام.

إيريس: إله الحرب وهو الاسم الذي أطلقته ناسا على إحدى سفن النقل الفضائية.

أفروديت: وهي إلهة الحب والجنس، يحمل اسمها منشطات أفروديا سك الجنسية.

وربما لو قرأتم أكثر في الميثيلوجيا الإغريقية لاكتشفتم أكثر من ذلك، فأنا شخصيّاً لا أنكر أنها ممتعة في حبكتها الدرامية وصورها الخيالية ولا أنكر أنها من أبرز محاولات البحث الفطري عن الدين والإله ولكنها حتماً لن تصل إلى ما وصلت إليه الديانة البوذية.

ففي عام (٥٦٨ ق.م) ولد (سيدهارتا غوتاما) والشهير باسم «بوذا» وهو صاحب أشهر ديانة وأكثرها انتشاراً، «بوذا» ليس اسمه ولكن الكلمة تأتي بمعنى الحكيم أو القديس، وعلى الرغم من مغالاة البوذيين ببوذا من بعد وفاته وقيامهم بتقديسه وجعله إلهاً يُعبد إلا أن «بوذا» نفسه بريء من ذلك لأن تعاليمه كانت سليمة ولايختلف أحدٌ في كونها تدعو إلى التأمل وإلى الإحسان والإخلاص والعطاء والزهد والرفق والرحمة،[1] بل إن إقرار الجميع بأن «بوذا» رجلٌ صالح دفع ببعض المسلمين على رأسهم «الميرزا طاهر أحمد» مؤسس الجماعة الأحمدية ومؤلف كتاب (الوحي والعقلانية) إلى الاجتهاد بالقول إن «بوذا» كان نبيّاً من الله وهو أقرب لأن يكون «ذا الكفل» حيث إن أصحاب هذا الرأي اجتهدوا بتفسير معنى كلمة (كفل) فخرجوا بثلاثة تفسيرات.

الأول هو أن كفل تأتي بمعنى من تكفل بحمل رسالة الله ليدعو بها قومه ولكن ما يقلل من هذا المعنى هو أن جميع الأنبياء تكفلوا بمهمة الرسالة أيضاً والله لايفرق بين أحدٍ من رسله حتى يختص ذو الكفل بهذه الميزة.

التفسير الثاني هو أن كفل تأتي بمعنى المضاعفة كما جاء في القرآن الكريم في سورة الحديد ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ [سورة الحديد آية ٢٨] أي ضعفين من

١- انظر كتاب بوذا الأكبر - د.حامد عبدالقادر.

رحمته وتم استبعاد هذا الاحتمال لأن يكون تفسيراً لكلمة كفل.

أما التفسير الثالث والأخير فهو أن كفل تأتي بمعنى الخرقة حسب ما ذكر في المعاجم وقاموس المعاني وبما أن الخطاب الرباني في القرآن كان يذكر الأشخاص بصفاتهم كقوله (ذو القرنين) وعن فرعون (ذو الأوتاد) وعن النبي داود (ذا الأيدِ) فوجدوا أن الأنسب لمعنى ذي الكفل هو أن يكون (ذا الخرقة) وهذا يتناسب في نظر أصحاب هذا الرأي مع «بوذا» الذي اتخذ الخرقة ملبساً له كناية عن الزهد والتقشف في المظهر.

أما عن كون أتباع «بوذا» جعلوا منه إلهاً بعد موته فهذا لا علاقة له ببوذا نفسه، فحتى بعض الأنبياء تم تأليههم من أتباعهم كمثل «عيسى بن مريم» و«العزير» عليهما السلام وهم من ذلك براء، ولكن قوبل هذا القول الذي ينص على نبوة «بوذا» بالاعتراض من جماعات كثيرة من علماء المسلمين وقالوا إن «ذا الكفل» لم يبعثه الله في شرق آسيا واستعانوا أيضاً بما ذكرته الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل عن النبي ذي الكفل أو حزقيال حسب اسمه في التوراة، ولكن مهما كان حجم الاختلاف فلن يختلف أحدٌ على ما جاء في القرآن ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [سورة فاطر آية ٢٤].

وما أعتقده أنا شخصياً هو أن «بوذا» كان رجلاً صالحاً توصل إلى الله بفطرته السليمة والسوية ولو أدرك الإسلام فلربما اعتنقه

تماماً مثل «روزبه بن يوذخشان» الذي لم يكن راضياً عن الديانة المجوسية التي اتخذها قومه ديناً لهم في بلاد فارس، فكان يتجنب طقوسهم ويتحاشى عبادة النار ويفضّل أن يخلو مع نفسه ويخلد إلى ذاته ويتفكر في الكون وخالق الكون ويسعى خلف فطرته السليمة التي تخبره بأن هنالك إلهاً واحداً وهو الأحق بالعبادة حتى جاء اليوم الذي قرر فيه الرحيل إلى الشام ومن ثم إلى الموصل وهو يتنقل ويبحث عن الحقيقة بين الديانات، إلى أن وصل لجزيرة العرب عن طريق قوافل التجارة، وهناك وجد ما كان يبحث عنه حين التقى بالنبي العربي، ومن هنا رق قلب «روزبه» حين عرف أنه كان على حق، ليصبح اسمه بعد ذلك «سلمان الفارسي».

***

نعم هو الله الذي كانت العقول تسعى إليه في داخلها وتبحث عنه، هو الله الذي آمنت به فطرة الإنسان منذ طفولته فتجده يسأل والديه: من أين أتيتما بي؟ لأن عقله منذ صغره يخبره بأن لابد له من سبب جاء به إلى الوجود، فلا وجود من غير سبب، ولامكان للمصادفة بين العقلاء، ولكنه الغرور والتفاخر باسم العلم هو ما دفع بعض المفكرين والفلاسفة إلى التمرد على وجود الله بعد قرونٍ طويلة من البحث عنه، فكما أن البحث عن الله أمرٌ فطري فهناك

أمور تأتي بخلاف الفطرة ومن هنا جاء الإلحاد والإنكار علاوةً على أن الإنسان بطبيعته ثوري ويعشق التمرد والاستقلال ويحب أن يتغنى بالحرية الشخصية، وكلما زاد حجم تمرده زاد انتصاره لذاته وتأكيده على حريته واستقلاله، وليس أمام المتمردين خيار يوازي الذات الإلهية حتى يثوروا تجاهها ويحاربوا فكرتها باسم العلم وبداعي مكافحة الخرافات، فتجد هؤلاء الملحدين يرددون أن الأديان خرافة وأن العلم الحديث أسقط فكرة وجود خالق ولعل أشهر عبارة هي ما قاله المفكر الألماني «فريدريك نيتشه» بأن (الله مات) فهؤلاء الفيزيائيون الماديون يرفضون فكرة الإيمان بوجود الله لمجرد أنهم لايؤمنون بالغيبيات أو الميتافيزيقيات على الرغم من أنهم يؤمنون بنفس الوقت بالكثير من الأمور الغيبية التي لايرون إلا أثرها ولكن لايعلمون ماهيتها، فهم يؤمنون بالكهرباء وبالطاقة وبموجات الراديو والإلكترون وجميعها من الغيبيات بل حتى أنهم يؤمنون بالعقل والروح في الوقت الذي يرفضون به الإيمان بوجود الله لأنه غير مادي ولكن يبدو بأن هذا التناقض هو نتيجة الانتقائية والغرور.

تجد الكثير من النظريات التي يحاول فيها الملحدون إسقاط وجود الله، والمشكلة أن من يرى ثقتهم وهم يكافحون حقيقة وجود خالق لهذا الكون أو (الخرافة) كما يسمونها، يظن للوهلة

الأولى أن لديهم حقائق علمية مثبتة ولكن يتفاجأ من يتعمق بقراءة كتبهم وبحوثهم بتبريرات خدعوا أنفسهم بأنها حقائق علمية وهي في الحقيقة ليست سوى نظريات تم نسف أكثرها بدءاً بنظرية التطور الشهيرة التي جاء بها العالم البريطاني «تشارليز داروين» والتي ذكرها في كتابه (أصل الأنواع) حيث نصت نظريته على أن الإنسان لم يكن على هيئته الحالية قبل قرون وإنما تطور من شكل يشبه القرد إلى أن وصل إلى شكله الحالي وأن كل خلية في جسم الإنسان تطورت بفضل الطبيعة لتكون هذه الهيئة المكتملة للشكل الحالي للإنسان.

ولكن نظريته التي تقول إن كل المخلوقات بكامل أعضائها تطورت بشكل تدريجي حتى أخذت هيئتها الحالية أوقعته في حرج عندما وصل «داروين» إلى شرح كيف تطورت عين الإنسان المعقدة في تركيبها والتي لايمكن أن تتطور بشكل تدريجي وهي غير مبصرة ومن هنا لم يستطع داروين تبرير ذلك واعترف بأن العملية صعبة وأنه يجهل الموضوع ولكنه حاول أن يلملم ما تبقى من نظريته حين خسر الرهان العلمي عندما أعجزته فقط فكرة العين إذ قال نصّاً في كتابه: «من الصعوبة تصديق أنه من الممكن تكوين عين كاملة ومعقدة عن طريق الانتقاء الطبيعي، مع أن هذا شيء غير قابل للتحقيق طبقاً لتخيلنا، ولكن لا يجب اعتباره كشيء مدمر لنظرية التطور».

بل هو مدمر كبير لنظرية التطور ياداروين، فيا أيها الداروني، إذا أردت أن تنفي وجود خالق بداعي (الخرافة) فيجب أن يكون البديل المقنع حقيقة علمية مثبتة لا نظريات لاتقل خرافة عن فكرة الخالق بنظرك، هذا علاوةً على التلاعب وتزييف الأدلة الأثرية التي اكتشفها علماء الجيولوجيا والتي تقضي على نظرية التطور كما ذكر الباحث الأمريكي «مايكل كريمو» مؤلف كتاب (التاريخ المخفي للجنس البشري) حيث ظهر في أكثر من لقاء تلفزيوني مصرحاً بأن الداروينيين لايريدون الاعتراف بفشل معتقدهم فبادروا إلى إخفاء الأدلة التي اكتشفت في مناجم الذهب وهي الجماجم وهياكل عظمية للإنسان قبل ملايين السنين ومع ذلك هي لاتزال كما أشكالنا الحالية دون أن تثبت أصلنا (القردي).[1]

وهكذا يتنقل الملحدون بين النظريات، فمن نظرية التطور التي أثبت بعض علماء البيلوجيا مؤخراً استحالة حدوثها بدون خالق أو مصمم ذكي، وذلك على صعيد الجينات المعقدة وبوجود ثغرات في تفسير من أين جاء المكون المعرفي للخلية الأولى، مروراً بنظرية «الانفجار الكبير» أو (The big bang) التي تنص على أن الكون جاء مصادفة عن طريق انفجار كبير حدث قبل ملايين السنين وإلى الآن لم يستطع من يتبنى هذه النظرية أن يجيب على أبسط سؤال إذا قيل له «حسناً من أين جاءت المواد التي تفاعلت وتسببت بحدوث

---

١ - أنصح بالإطلاع على كتاب صندوق داروين الأسود للبرفسور مايكل بيهي.

هذا الانفجار؟!» ليتفاجأ السائل بإجابات فيها من الحماقة مافيها وكأنهم يقولون (كان هنالك «لاشيء» ثم انفجر) ولا ننسى نظرية أن الكون أزلي وموجود منذ القدم وكأنهم يقولون (هكذا أثبت العلم أزلية الكون ولاتسألونا كيف)..!

مسكينٌ أنت أيها العلم، لقد أصبحت شمّاعة وكبشاً للفداء وكل ذلك في سبيل الغرور والمكابرة في الاعتراف بوجود (خالق لهذا الكون) وكأني أرى حين أنظر إلى الملحدين صورة الفيلسوف البريطاني «أنطوني فلو»، الذي كتب ما يزيد على ثلاثين كتاباً عن الإلحاد ومحاربة فكرة وجود خالق خلال خمسين عاماً من الغرور والمكابرة وكان يعد من كبار الملحدين إلا أنه وقبيل وفاته أصدر كتاباً بمثابة الصدمة لجميع أنصاره حيث نسخ ذلك الكتاب كل ما كتبه خلال الخمسين عاماً عن الإلحاد وكان عنوان كتابه الأخير (هنالك إله) ويقول عن نفسه إنه بعد تمحيص وتدبر بالأدلة الكونية آمن بوجود خالق لهذا الكون واقتنع باستحالة أن يتكون أي أمر من العدم.

وقد تواجه في حياتك أنواعاً أخرى من الملحدين الذين يمتهنون فن التشكيك، فهم يعلمون بأن تمسكهم بنظرية يزعمون أنها علمية لايكفي في النقاش بل سيجعلهم ذلك الحلقة الأضعف فيما لو كان الطرف الآخر في النقاش ملمّاً بتفاصيل علمية تنقض

نظريات التطور وغيرها، فتكون سياسة هذا النوع من الملحدين هي بطرح الأسئلة التي لايستطيع المتدين أن يجيب عليها نظراً لأن الملحد ليس لديه سقف أعلى للتساؤلات، بينما المتدين خاضع لحدود إيمانه فيظن الملحد أنه بذلك انتصر في النقاش حين يسأل المتدين مثلاً «إذا كان الله خلق كل شيء فمن خلق الله؟ ومن أين جاء الله؟ وكيف يمكن أن يبعث الميت من جديد؟ وكيف وكيف وكيف»..؟ ويستمر في طرح الأسئلة التي تعطيه نشوة الانتصار وهو في الحقيقة يخدع نفسه ويذكرني بالدجاجة التي قدر الله لها عقلاً يتناسب معها ويكفل لها معرفتها بأمور حياتها مثل الأكل والشرب وبناء العش والعناية بالبيض ولكن هذه الدجاجة تصر أن تعرف - بعقلها المحدود- كم هو حاصل ضرب العدد (٢ × ٢) وحين لم تتمكن من أن تعرف الإجابة - بعقلها المحدود- قررت أن تُلحد بعلم الجبر والحساب.

كذلك هو ذلك المشكك والذي ظن أن عقله المحدود وعلمه القليل من المفترض أن يعرف جميع الأمور التي تفوق قدرات عقله فإن لم يستطع عقله معرفة ذلك، فهذا يعني أن الأمور التي تفوق قدرات عقله غير موجودة وتستحق أن يلحد بها!

بل إن من يتمعن في أسئلتهم المطروحة سيرى فيها كمية هائلة

من التخبطات والتناقضات، فتجد أن من يسألون دائماً من خلق الخالق؟ هم أول من يقعون في فخ التناقض وذلك حين يعترفون بسؤالهم أن الله هو الخالق ثم يسألون من خلق الخالق ليجعلوا بذلك الخالق مخلوقاً! ومن التناقضات أيضاً قولهم باستحالة حدوث عملية بعث للمواد الفانية والميتة في الطبيعة وهم يرون بأعينهم وفي الطبيعة نفسها كيف تموت الأشجار وسائر النباتات ثم تعود للحياة من جديد وهذا مثال مصغر لعملية البعث يثبت واقعية حدوثه وقد أشار القرآن إلى عملية إحياء الموتى في الطبيعة في سورة فاطر ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [سورة فاطر آية ٩].

شخصيّاً أومن كثيراً بأن داخل كل ملحد مؤمناً صغيراً يحاول جاهداً أن يكبر مشكّلاً صراعاً في داخل عقلية ذلك الملحد فإما أن يكبر ويسيطر على عقل صاحبه أو أن يغرق ويظل حبيساً للغرور والتكبر، مما لاشك فيه أن التفكر والشك في الكون وخالق الكون أمرٌ صحيٌّ إذا كان المتشكك مخلصاً في البحث عن الحقيقة مع ذاته وبكل هدوء لمعرفتها، فهو بذلك وعندما يصل إلى الحقيقة يعود إلى الإيمان بوجود خالق بشكلٍ أكبر وأكثر ثباتاً من قبل لذا غالباً ما تجد أن من عادوا من الإلحاد إلى الإيمان هم أكثر من حاربوا الإلحاد بعد ذلك ونشروا ضده العديد من الكتب والمقالات، بينما الأمر

الذي لا أراه صحيّاً على الإطلاق هو إعلان أي ملحد الحرب على المؤمنين ومناهضة الأديان والاستبسال في دحض وجود الله وكأنه جعل من موضوع إلحاده وسيلة تجارية لا علاقة لها بالبحث عن الحقيقة، فتجد في أسلوبه الكثير من التعالي والادعاء بأنه حليف العلم وبأن المؤمنين متخلفون ويتبعون الخرافات وكأنه يستند على حقيقة علمية تبيح له اتهام عقول المؤمنين بالانتقاص! أو كأن المؤمنين ليس بينهم علماء وأطباء وفلكيون وغيرهم حتى يشعرك بأن العلم كله في صفه بينما كل ما لديه هو مجرد نظريات لم ترتقِ حتى لأن تكون ثابتة علميّاً ومازالت في بحر التنظير وفي طور التخريف، وهذا النوع من الحرب على المتدينين هو ما يؤكد وجود حرقة وحسد في نفوس الملحدين تدفعهم للنيل ممن فازوا بعقولهم وآمنوا بوجود خالق بينما بقوا هم غارقين في وحل الغرور والتكبر يبحثون عن ما يسعفون به فكرهم وحين شعروا بالإفلاس استبسلوا بالحرب على الله والأديان لعلهم في ذلك يعوضون ما في داخلهم من خواء وفراغ لم يملأه لهم تسبيحهم بحمد الطبيعة.

فسبحان الطبيعة حسب نظرهم، نعم سبحان الطبيعة فهي من خلقت كوناً وكواكب ونجوماً وشمساً وقمراً وأرضاً من العدم، وجعلت الأرض تدور حول نفسها ليكون لها نصيبٌ من شروق الشمس وغروبها وجعلت الأرض تستفيد من شروق الشمس

بعمليات تبخر المياه لتشكيل الأمطار وعمليات البناء الضوئي ليعيش النبات ويكتظ بالثمر وجعلت من الشمس نوراً يضيء الأرض ويغذيها بالطاقة ويساهم في تكوين فيتامين دال، وسبحان الطبيعة التي وضعت الشمس بمسافة دقيقةٍ جدّاً بحيث لو تم تقريبها بضعة كيلوات لاحترقت الأرض ومن فيها، كم هي حنونٌ تلك الطبيعة وحريصة جدّاً على أن يعيش الناس على أتم حال.

تخيل معي أن الليل دائم أو أن النهار دائم فكيف ستكون الحياة على وجه الأرض؟ وكيف عرفت الطبيعة من ذاتها أن الحياة لن تستقيم بهذا الشكل فقررت أن تجعل الأرض تدور حول نفسها ليتغير حال الليل والنهار ثم تخيل معي أن العام كله صيفٌ أو شتاءٌ فهل ستستقيم الحياة؟ فسبحان الطبيعة الحنون التي جعلت الأرض تدور حول الشمس محدثةً الفصول الأربعة وملبية بذلك احتياجات الأرض المختلفة من كل فصل وموسم.

وسبحان الطبيعة التي خلقت الإنسان من العدم وحرصت كل الحرص على أن يتكاثر نسله فقامت بتجهيز أعضاء وجهاز تناسلي للذكر والأنثى وجعلت كل جهاز مكمل للآخر من أجل عملية الإنجاب ومصمم بشكل متقن ليليق بتحقيق ذلك الكمال ووفرت للجنين في رحم أمه جميع سبل العيش، وسبحان الطبيعة التي جعلت للإنسان عينين فهي حريصة جدّاً على أن يرى جمالها

ويشكرها على كل ما قدمته له بمصادفتها وعفويتها، وسبحان الطبيعة التي جعلت للإنسان جهازاً تنفسيّاً ووفرت له الأكسجين على الأرض ليستنشقه ويحيا به ومن ثم أعطتهُ جهازاً هضميّاً حتى يخرج الفضلات الضارة من جسده وكليتين تعملان كالمصفاة التي تنقي جسمه من السموم والأملاح، كم هي حريصة تلك المصادفة على أن يعيش الإنسان بكامل الأريحية، فوفرت له المياه والأكل وأنزلت له المطر وأنبتت له الشجر وسخرت له الدواب وسائر المخلوقات وأعطته الأسنان ليقطع بها الأكل وأهدته السمع والبصر ليسهل عليه التواصل مع الآخرين ولساناً ليتحدث ويتذوق به وصوتاً لنسمعه من خلاله وجعلته ينام ليرتاح ويريح دماغه الذي يتخلله مراكز كثيرة تعمل وكأنها غرفة تحكم بقيادة الجسم أبرزها مركز الذاكرة في الدماغ، فسبحان الطبيعة التي وفرت للإنسان حتى ذاكرة يستطيع من خلالها تخزين ذكرياته السعيدة والتعيسة وسبحان الطبيعة التي جعلت لكل إنسان بصمته الخاصة به وحمضه النووي حتى لايختلط مع الآخرين، بالفعل يالها من مصادفة عظيمة أن تكون الطبيعة بهذه الحنية والرحمة!! يحتاج الملحد قليلاً من التفكر والتدبر لتصبح الجملة (سبحان الله).

يقول المناظر الشهير «ذاكر نايك» عن الملحدين بأنهم أسهل الناس في المناظرات لأنهم جاهزون أكثر من غيرهم، فهو حين

يناظر هندوسيّاً أو بوذيًّا أو صاحب أي ديانة يجب أن يقنعه بالشق الأول من الشهادة وهو (أشهد ألا إله) ثم يقنعه بالشق الآخر (إلا الله) وهذا يتطلب مجهوداً ووقتاً ثميناً حتى يقتنع الهندوسي بأن إلهه الذي يعبده غير صحيح وكذلك البوذي والسيخي والمسيحي بينما الملحد يأتي وقد تجاوز الشق الأول منذ البداية فهو يؤمن تلقائيّاً بأنه (لا إله) وكل ما يتطلب الأمر هو مناظرته ودحر حجته بالحجة حتى يقتنع بـ (إلا الله).

***

أعتقد أننا في زمن ما بعد ثورة الإلحاد وأن فكر الإلحاد قد انتهى وما نراه الآن ليس إلا تخبطاً وبقايا لم يعد يسعفها العلم الحديث، فربما في حقبة معينة في الماضي كان الجهل الطبي طاغياً بتفاصيل الأمور فاستطاع أن يمرر الملحدون أفكارهم فيما يخص الأمور المجهرية وتطورها عبر السنين وغيرها من النظريات كالانتخاب الطبيعي وأزلية الكون ولكن الآن الأمر قد اختلف فالعلم لايتعارض مع الدين وبالتحديد الدين الإسلامي، وهذا ما أثار حفيظة من حاولوا أن يفصلوا بين الاثنين حتى يحاربوا في صفوف العلم ضد الدين وكأن الدين ليس له علاقة بالعلم ولكن الدين تمكن من الصمود أمام أفكارهم وإثبات دوره العلمي من خلال

إعجازاته القرآنية ونبوءات رسله وأنبيائه وفي نهاية المطاف، صار العلم والدين يسيران في خطين متوازيين لايتعارض أحدهما مع الآخر لتصبح بذلك مقولة الفيزيائي الألماني «فيرنر هايزنبيرغ» هي سيدة الموقف إذ قال: (من المحتمل أن تصبح ملحداً عندما تشرب من كأس العلم ولكن ثق تماماً بأنك ستجد الله ينتظرك في آخر الكأس..)..!

***

الفصل الثاني

قراءة في شخصية إبليس...

من منا لم يتوقف مع نفسه ليتفكر قليلاً في شخصية إبليس؟ ومن منا لم يسأل نفسه لماذا خلقه الله وهو يعلم بالذي سيفعله هذا الشيطان؟ وما الحكمة من أن يطول عمره إلى يوم يبعثون؟ وهل هنالك فوائد منه؟ أعتقد أننا جميعاً قمنا بذلك بل حتى حين كنا أطفالاً صغاراً حيث كانت صورة إبليس عالقة في أذهاننا بسبب ما كانت تصوره لنا الرسوم المتحركة والقصص المصورة عن هذا المخلوق الشرير الذي يوسوس للناس بالسوء وهو يشتعل ناراً ممسكاً بشوكته الحديدية.

على الرغم من أن التساؤلات كثيرة جدّاً حول هذه الشخصية إلا أني قررت أن أبحر فيها قليلاً، فهذه الشخصية أعلنت الحرب علينا وجعلت من نفسها عدوّاً لنا، وكما يقول المثل (اعرف عدوك..) فمن حقنا جميعاً أن نعرف عدونا أكثر ونُخضع شخصيته إلى قراءة استثنائية حتى نفهمه ونتصدى لمخططاته وننظر

في إمكانية الاستفادة منه أكثر، رغم قناعتي بأن أعظم فائدة دينية من إبليس هي حين استجاب الله دعاءه عندما رفض السجود لآدم حيث قال هذا الشيطان ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة الحجر آية ٣٦] فرد الله قائلاً ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [سورة الحجر آية ٣٧] وهنا تتجلى صورة واضحة لطلب إبليس ودعائه لخالقه بأن يطيل عمره وأيضاً إجابة واضحة من الله لهذا الدعاء والفائدة المرجوة هنا أن الله للجميع، ولا يحق لأحد مصادرة حق أي مخلوق مهما بلغ عصيانه وطغيانه في مناجاة ربه أو دعائه.. فطالما أن الله استجاب دعاء إبليس فليس هنالك أي شخص بمعزل عن الدعاء والإجابة، ولكني سأحاول البحث في شخصيته أكثر للاستفادة في أمور أخرى..

تخيل أيها «الآدمي» أنك في الجنة بأنهارها وقصورها وما تشتهيه الأنفس.. فهل ستجد في نفسك شيئاً (يغريك) للخروج منها وهي التي فيها مالا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر؟ أعتقد أن إخراجك منها يتطلب مهارات عالية جدّاً في الإغراء، لذا كنت أفكر دائماً مع نفسي قائلاً: ما الذي دفعك يا أبانا آدم إلى ارتكابك للخطأ الذي أخرجت نفسك وذريتك من الجنة بسببه؟ عندها قررت أن أبحث أكثر فلم أجد أمامي إلا «إبليس» فسعيت لمعرفة أي مهارة يملكها هذا الرجيم.

أنا مؤمن بالقضاء والقدر وأن الله قد قدّر لنا أن يخلقنا ثم يهبط بنا إلى الأرض خصوصاً حين كنت أتأمل في الآيات التي تتحدث عن بداية الخلق عندما أخبر الله ملائكته في مشهد يبين إرادة الله سبحانه حين قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة آية ٣٠] فهذه الآية توضح أن الله سبحانه قد قدّر قبل خلق آدم بأن يكون مكانه في (الأرض) ولكن لأهمية وجود سبب في حياتنا كان لابد من أن نخرج من الجنة بفعل فاعل، وهذا الفاعل اسمه «إبليس» والذي يعني «المطرود» حيث استخدم القرآن لفظ الإبلاس في مواضع عدة كقول الله ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [سورة الأنعام آية ٤٤] أي مطرودون من الرحمة، وإذا أردنا التقصي أكثر عن اسم إبليس على افتراض أنه كان مخلوقاً صالحاً إلى درجة جعلت الله يرتقي به من الأرض إلى الجنة في مصاف الملائكة، فمن غير المعقول أن يكون اسم (المطرود) هو اسمه الأصلي، لذا أشارت بعض روايات الحديث وكتب التفسير إلى أن اسمه كان «عزازيل» ولكنه سُمي إبليس بعد حادثة التعالي عن السجود لأبينا آدم والتي طُرد على إثرها.

أثارت شخصية إبليس الجدل عن ماهيته؟ وهل هو ملاك أم من الجن؟ قالوا إنه من الجن استناداً لما جاء في القرآن ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [سورة الكهف آية ٥٠] فاعترض آخرون

بقولهم إن إبليس ملاك والمقصود هنا بأنه كان من الجن هو للتشبيه فقط أي أنه سلك مسلك الجن في عصيانه ولو كان من الجن فكيف استثناه الله من بين الملائكة إذ قال ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ [سورة البقرة آية ٣٤] ومن قواعد الاستثناء لغوياً أن يكون المستثنى من نفس الجنس الذي استثني منه، ثم بعد ذلك قال الله له ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [سورة الأعراف آية ١٢] ولاحظ قول الله ﴿ أَمَرْتُكَ ﴾ وفيه إشارة إلى نفس الأمر الذي وجهه الله للملائكة بالسجود ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ ثم عاتب إبليس لعصيانه في هذا الأمر؟ فكيف يعاتبه على الأمر الموجه للملائكة إذا لم يكن ملاكاً؟..

الإجابة على هذا السؤال شائكة ولكن آخر ما توصلت إليه من بحثي واستنتاجي أن هذا استثناء منقطع وأن إبليس من الجن وليس ملاكاً بل ويختلف عن الملائكة بأبسط خصائصه حيث ذكرت النصوص أنه مخلوق من نار بينما الملائكة مخلوقون من نور، وأيضاً بأنه قد عصى أمر الله بينما الملائكة لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فما حدث هو أن الله أكرمه وضمه إلى صفوف الملائكة تشريفاً له حين كان صالحاً ولكن يأبى الشيطان إلا أن يكون شيطاناً.

خلق الله الملائكة من نور بينما خلق الشيطان من نار، والنار تعتبر عنصراً أقوى من النور، فالنار هي التي يشع منها النور أي إن النار هي الأصل بينما النور هو نتيجة تابعة لهذا الأصل ويتضح ذلك

مما جاء في القرآن من قول الله ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة آية ١٧] حيث يُلاحظ أن النور الذي ذهب الله به هو نتيجة للنار الموقدة، ولعل هذا السبب الوحيد الذي جعل إبليس يلتفت إلى نفسه حين رفض السجود لآدم قائلاً ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف أية ١٢] فلو كانت الملائكة قد خُلقت من العنصر الأقوى لما استطاع إبليس أن يتفاخر بخلقته وأصله أمامهم ولكن لأنه يعلم بأن الله خلقه من العنصر الأقوى بين الحاضرين التفت إلى ذلك واستكبر ليخط أول سطر في تاريخ العنصرية.

استطعت أن أتواصل مع أحد عبدة الشيطان الذين يعيشون بيننا اليوم لأسأله عن الذي دفعه لأن يناصر الشيطان بعد كل الذي فعله بنا، قال لي «مبدؤنا يناصر الشيطان لأنه عميد الموحدين لله، فهو رفض أن يسجد لغير الله حتى حين أمره الله نفسه بذلك».. أعلم بأن مبدأهم غريب ولكني أتعجب منهم لأنهم يعرفون تبرير إبليس عن عدم سجوده لآدم حين سأله الله ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [سورة ص آية ٧٥] ومع ذلك لايزالون مصرين أن الموضوع له علاقة بالتوحيد، ولكن كيف لمن يملك قدرات عالية على الوسوسة والإغراء مثل إبليس الذي أخرج آدم من الجنة أن لا يملك ذلك في الحياة الدنيا ليجعل من بعض الناس أنصاراً له.

نعود الآن إلى بعض الأسئلة التي تتعلق بشخصية إبليس ولعل أول تساؤل نطرحه دائماً لماذا خلق الله إبليس وهو يعلم بأنه سيعصيه؟ مما لاشك فيه أن هذا الأمر هو شأن إلهي ولله في خلقه شؤون، ولكن إيماناً مني بوجود حكمة ربانية خلف كل شيء سأسعى جاهداً في التفكير والتأمل لمحاولة الوصول إلى هذه الحكمة! تخيلوا أننا نعيش الحياة كلها في الليل! ولايوجد نهار، فكيف سيكون حجم الضرر على حياتنا اليومية؟ ستجد الأراضي قاحلة بدون الشمس والحياة متوقفة ولايوجد نباتات بسبب توقف عملية البناء الضوئي وبالتالي فقر وجوع بالمحاصيل الزراعية وكذلك جفاف لعدم وجود أمطار بسبب توقف عملية التبخر وغير ذلك كثير وحتى لو سرحنا بخيالنا إلى أننا نعيش الحياة كلها في النهار ولايوجد ليل فأثر ذلك على حياتنا سيكون أكبر ضرراً! وتخيلوا أننا نعيش شتاءً دائماً أو صيفاً دائماً فكيف ستستمر الحياة؟ أو تخيلوا أن نعيش جميعنا في فقر مدقع أو أن نعيش جميعنا في ثراء فاحش، فهل ستستقيم الحياة؟ ومن سيخدم من؟

من هنا تكمن قيمة نقيض الشيء، إن من حكمة الله علينا أن خلق لنا الأضداد، فالشيء لايمكن معرفته إلا بمعرفة نقيضه، فالنور لايُعرف إلا بالظلام، والوجود لايُعرف إلا بالعدم، والخير لا يُعرف إلا بالشر، والصحة لاتُعرف إلا بالمرض، فكما قالت العرب

بأن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لايراه إلا المرضى، وكذلك الله الذي ما كان من الممكن أن يُعرف لو لم يُعارض بالباطل.[(١)]

خلقنا الله لنعبده ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات آية ٥٦] وهذه إحدى الحكم الربانية لله منذ بداية خلق الإنسان عندما قال الله إني جاعل في (الأرض) خليفة ولكن ولكي تتحقق الرغبة الإلهية في أن يكون الإنسان عابداً لله في الأرض فلابد للإنسان أن يميز بين الخير والشر حتى يعرف بذلك طريق الله وطريق الحق، لذا خلق الله إبليس ليكون بوابة للإنسان لمعرفة الخير والشر والتمييز بينهما، ويتضح ذلك من النصوص المذكورة في التوراة عن حقيقة الشجرة التي حرّمها الله على آدم، حيث ذكرت التوراة في «سفر التكوين» أنها (شجرة التعرف على الخير والشر)وأن الله خلق آدم بدائيّاً لايستطيع أن يميز بين الخير والشر وبما أن غاية الله من خلق آدم هي أن يعبده فكيف سيستطيع أن يعبده وهو لا يميز بين الخير والشر، ومن هنا تجلت الحكمة الربانية في خلق الشيطان وتسليطه عمداً على آدم حتى يأكل منها ويدخل بعد ذلك في صراع الخير والشر والجنة والنار، ذكرت التوراة في «سفر التكوين» أيضاً أن الله قال بعد أن عرف بأن آدم آكل من شجرة التعرف على الخير والشر: (ها هو الإنسان قد صار واحداً منا عارفاً للخير والشر) لذلك جاء في القرآن

١- أنظر أيضاً شفاء العليل لابن القيم.

أن أول ما حدث لآدم وحواء بعد أن أكلا من هذه الشجرة هو أنهما أدركا بأن أجسادهما عارية(١) وبأن هذا الأمر سيئ فسارعا بتغطية أجسادهما بالأوراق رغم أنهما كانا يعيشان فترة طويلة وهما عاريان قبل الأكل من الشجرة ولكن دون تمييز بين الخير والشر والجميل والقبيح ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [سورة طه آية ١٢١] ومن هنا كانت البداية وبعد إدراك آدم الخير والشر جاء الأمر الإلهي لآدم بالهبوط من الجنة ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة آية ٣٨] فبعد أن عصى ربه بأكل الثمرة عاقبه الله على العصيان ولكن قدر الله له ذلك حتى يبدأ آدم بالشروع في الطاعة وتلبية الرغبة الربانية في خلق الإنسان من أجل العبادة ومجاهدة الشيطان على ذلك لمن أراد أن يسكن في الجنة «الحقيقية التي أعدها الله للمتقين يوم القيامة»وهو اليوم الذي سينتهي فيه الصراع بين الخير والشر وسينتهي دور إبليس والحكمة الربانية من الإطالة بعمره إلى هذا اليوم.

لقد كتبت سابقاً جملة «الجنة الحقيقية» عن قصد وذلك حتى أميز بين الجنة التي أسكن الله فيها آدم وحواء وبين الجنة التي وعد الله بها المتقين يوم القيامة فهناك خلاف علمي عن الجنتين ولا يوجد

١- اختلف العلماء في تفسير قول الله (يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا) ولم يشترطوا أن يكون اللباس مادي فمنهم من قال النور والظفر ومنهم من قال لباس التقوى .

نصوص شرعية تفيد بشكل صريح أن الجنة التي أسكن الله فيها آدم هي نفسها جنة الفردوس، بل إن النصوص الشرعية تدعم أصحاب الرأي الذي يقول إن جنة آدم ليست في السماء وإنما في الأرض أي إن آدم كان في الأرض منذ بداية الخلق أما قول الله لآدم وحواء ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾ فلا يعني بالضرورة أن يكون المعنى النزول من السماء إلى الأرض، فالله سبحانه استخدم نفس الكلمة في موضع آخر إذ قال ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [سورة البقرة آية ٦١] أي اذهبوا وكذلك قول الله ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ [سورة هود آية ٤٨]، أما استخدام الله للفظ جنة فهو وارد في القرآن وبمواضع كثيره كقصة الذي ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [سورة الكهف ٣٥] فالمصطلحات القرآنية مثل (الهبوط والجنة)لا تعني بالضرورة أن آدم كان في الجنة التي أعدها الله للمتقين يوم القيامة وإنما جائز أن تكون الجنة في الأرض نفسها والتي قال الله عنها منذ البداية إنه سيجعل فيها خليفة وقال عنها أيضاً ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه آية ٥٥] وأيضاً قال ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح آية ١٧].

أما غير ذلك من الدلائل العقلية على أن جنة آدم تختلف عن جنة الآخرة فكثيرة، لعل أبرزها أن إبليس استطاع أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم بعدما طرده الله منها وحرّمها عليه من قبل حين رفض أن يسجد ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [سورة الأعراف آية ١٣] لذلك دخوله مرة ثانية يعني

أنه اخترق أمراً إلهيّاً إذا افترضنا أن آدم كان في جنة الآخرة عندما وسوس له وهذا مما يزيد قوة فرضية أن تكون الجنة التي وسوس فيها إبليس لآدم مختلفة وموجودة في الأرض، الأمر الآخر أن إبليس استطاع أن يوسوس لآدم بأمور دنيوية لاتليق بمن سكن الجنة، فمن يدخل الجنة لن يكون لديه احتياجات مثل البحث عن المال أو الخلود، فلا حاجة للإنسان بالمال وهو في الجنة ولا حاجة له للبحث عن الخلود لأن الجنة ليس بها موت، بينما آدم أكل من الشجرة لأنه صدّق إبليس في البحث عن العمر المديد والمال العديد حين قال له ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [سورة طه أية ١٢٠] وأيضاً قول إبليس لهما ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [سورة الأعراف آية ٢٠] وفي هذه الوسوسة استرسال أيضاً في عرض أمور ليست من اهتمامات وحوائج إنسان في داخل الجنة وهو يملك كل الأموال من حوله ويعيش فيها خالداً إلى الأبد، ولكن تبقى المسألة عن جنة آدم محطّاً للخلاف والنقاش بين العلماء في تحديد ماهيتها إلا أن ماهية إبليس نفسه لاتقبل النقاش، فهو شخصية ترمز إلى الشر، بدأ دورها عندما استطاع الإنسان أن يميز بين الخير والشر بعد أن أكل من الشجرة، ليتم تكليفه بعد ذلك بمسؤولية خلافة الأرض وعبادة الله...

***

الفصل الثالث

زميلتي المسيحية...

«إيفا».. امرأة أمريكية مسيحية في منتصف الخمسينيات من العمر، شاء الله أن أعمل برفقتها في أحد المستشفيات الحكومية، كانت خائفة من قدومها إلى السعودية للعمل على حد قولها وشخصياً لا ألومها على خوفها طالما أن إعلامهم مستمرٌّ في إظهارنا بصورة الإرهابيين المتحجرين..

ذات يوم وبعيداً عن أجواء العمل أبحرنا في دردشة جانبية وحاولت بذلك أن أكتشفها أكثر، اتضح لي من خلال حديثنا عن عائلتها والصور التذكارية التي أظهرتها من محفظتها أن زوجها المتوفى كان أسود البشرة وأثناء الحديث عن زوجها بدأت تذرف الدموع على ذكراه، ليس لأنه مات فحسب، بل ما صاحب ذلك من ذكريات تعيسة وهي تحكي لي عنه وكيف التقت به وكيف كانا يتعرضان لاضطهاد واحتقار شديدين لكونها بيضاء اللون وزوجها أسود، أخذنا النقاش فجأة إلى الدين الإسلامي وكيف أنه يحارب

العنصرية ويندد بهذه التصرفات وكيف أن رسول الإسلام أذاب الأبيض في الأسود ووحد الألوان تحت راية واحدة، وجعل الناس سواسية كأسنان المشط يصلون خلف الأسود «بلال بن رباح» دون تفرقة وكيف أمر المسلمين إجمالاً بترك العصبية ووصفها بأنها منتنة.. فردت لي بأنها تعرف ذلك جيداً! ثم أضافت بأن نبذ الإسلام للعنصرية هو ما جعل السود في أمريكا يعتنقون هذا الدين إبان ثورة السود في ستينيات القرن الماضي ولعل أشهرهم قائد هذه الثورة «مالكولم أكس» والذي اغتالوه نظير ذلك.

بعد نقاشنا الهادئ وحين هممنا بإنهاء اللقاء اعترفت لي «إيفا» بكلام مفاجئ حين قالت لي وبمناسبة حديثنا عن الإسلام بأن قلبها قد رق لهذا الدين بعد عيشها بين جموع المسلمين ولكنها تريد أن تقرأ أكثر عن هذا الدين فطلبت مني أن أحضر لها القرآن لتقرأه فوعدتها بذلك، وفي اليوم التالي ذهبت إلى أكثر من مكتبة لأبحث لها عن أفضل ترجمة لمعاني المصحف الشريف باللغة الإنجليزية رغم قناعتي بأن وقع اللغة العربية ليس له مثيل ولكن هكذا أراد الله.

جاء اليوم الذي لاقيت فيه السيدة «إيفا» وقدمت لها القرآن ففرحت بذلك كثيراً ثم قالت لي: «كم ثمنه؟» وهي تضع يدها على حقيبتها وكأنها على استعداد لإخراج المبلغ الذي سأقوله، ولكنها

فاجأت وفرحت عندما قلت لها بأن القرآن هدية مني ولن آخذ في كتاب الله أي فلس، شكرتني كثيراً والشكر لله وقالت لي: دعني أقرأه وسأعود إليك فور انتهائي، فقلت لها: إن شاء الله.

بعد أكثر من أسبوعين، أجبرتني ظروف العمل أن ألتقي بها من جديد في اجتماع للموظفين، وبعد أن انتهينا من الاجتماع جاءت «إيفا» وهمست لي بأنها تريد أن تخبرني انطباعها عن الذي قرأت من القرآن، سعدت لسماع رأيها رغم أنني استشففت من لغة جسدها عدم الرضا، ولكن لثقتي بكتاب الله اعتقدت أنها قلقة من أمر آخر.

جاءتني على استحياء وقد طأطأت رأسها وكأنها تجر أذيال الهزيمة وقالت لي: لا أخفي عليك يا سلطان أني تراجعت عن فكرة الخوض في تفاصيل الإسلام وربما اعتناقه، تفاجأت! وسألتها لماذا؟ فقالت: «لن أقول لك كيف كانت سعادتي حين أهديتني القرآن لأنك رأيت ذلك بعينك، ولكني حين بدأت بقراءة فهرس القرآن لفت انتباهي سورة اسمها (The Women) أي النساء، وبما أني حريصة على إقناع نفسي بأن الإسلام دين أكرم المرأة ونصرها فقد قررت أن أبدأ بقراءة هذه السورة أولاً لعلي أرى فيها تكذيباً للتهم التي تقول إن الإسلام اضطهد المرأة وما أن بدأت بقراءة السورة التي تخص النساء حتى صُدمت من ذلك، فالسورة بدأت بالحث على التعدد مروراً بجعل نصيب الذكر مثل نصيب

الأنثيين مروراً بتعزيز قوامة الرجل على المرأة، وقد اكتفيت عند إعطاء الرجل السلطة لضرب المرأة وهجرها!! فقد كفاني ما قرأته من السورة التي ظننت أنها ستستأصل من رأسي فكرة اضطهاد الإسلام للمرأة وأن ما نراه من المسلمين ليس إلا ممارسات فردية خاطئة ولكني الآن أصبحت على قناعة بأن ما تتعرض له المرأة في الإسلام من ظلم وتهميش هو من واقع التشريع القرآني، لذا أنا أعتذر وأعتقد أن الحظ لم يحالفني للإبحار في هذا الدين العظيم أو حتى اعتناقه!»

قلت لها: حسناً.. سأحترم وجهة نظرك ولكن أريد منكِ وعداً بأن أراكِ لاحقاً لأُعطيكِ رأيي فيما قلتِه وكيف فهمتِه، قالت لي «أعدك».

فأخذت منها موعداً في الأسبوع الذي يليه، وبالفعل زارتني «إيفا» في اليوم الموعود فرحبت بها في مكتبي الصغير وكنت حينها قد حضّرت نفسي جيداً للإدلاء بدلوي من واقع فهمي للقرآن وبحثي وتمحيصي بنصوصه، جلست وقالت لي: «ها أنا على وعدي وكلي آذانٌ صاغية»، قلت لها: «في البداية ساءني كثيراً الطريقة التي فهمتِ بها ما قرأتِه ولست أقدح في فهمك ولكني أجزم بأن للتأمل دوراً في إيضاح مدى ظلمك لنفسك كامرأة»، قالت: «أتفهم موقفك في دفاعك عن دينك ولكني آسفة فلا أعتقد أن ما قرأته

غير واضح إلى درجة تستدعي التأمل»، قلت لها: «ولكني لست هنا لأدافع عن ديني بقدر أنني كرهت أن أقف مكتوف الأيدي وأنا أراك قد أسأتِ الفهم.. فاسمحي لي أن أقول ما لدي ولكِ الخيار المطلق في أخذه أو تركه، فأنا لن أكره الناس حتى يكونوا مؤمنين!» فقالت: «حسناً».

بدأتُ في الحديث وقلت: «أولاً لابد من أن نتتبع الحكمة من أي تشريع رباني فنحن المسلمين نؤمن بوجود تعدد الزوجات لدينا في الوقت الذي نؤمن فيه بأن التعدد مقرون بشرط العدل ومن لايعدل بين زوجاته فعليه الارتباط بزوجة واحدة كما قال الله ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [سورة النساء آية ٣]، والقرآن بالمناسبة هو الكتاب الوحيد من بين الكتب السماوية الذي ذكر بنص صريح قولة ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ ليضع رقماً واضحاً ومرهوناً بشرطٍ يخاف الناس من تطبيقه وهو «العدالة» لذا يُفضّل الناس تحاشي التعدد وعدم تجاوز هذا الرقم الواحد خصوصاً أنهم يعرفون بأنهم أقرب لعصيان الله من طاعته فيما يتعلق بشرط العدالة الذي قال القرآن عنه ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [سورة النساء آية ١٢٨]، ولكن الغاية من تشريع التعدد في القرآن هي تقديم وتوفير «حل» وليس كما يظن البعض أنها أمر، بل هي حل كفله لك الشرع الإسلامي في حال أن ظروفاً معينة أصبحت صعبة فيكون هنالك خيار قابل للطرح والتفكير، فعلى

سبيل المثال، التعدادات السكانية في أمريكا تثبت كل عام أن نسبة الإناث تزيد كثيراً على نسبة الذكور وأتذكر الإحصائية التي نشرتها رويترز عام (٢٠٠١م) في خبر كانت تبشر به الشعب الأمريكي بتزايد عدد الذكور بشكل ربما يغطي مستقبلاً العجز في عدد النساء اللاتي لم يتزوجن إلى الآن حيث ذكرت رويترز في التقرير (بلغ عدد الرجال الأميركيين عام (٢٠٠٠م) (١٣٨,١ مليوناً) بزيادة قدرها (١٤٪) على عام (١٩٩٠) وبلغ عدد النساء (١٤٣,٤ مليوناً) بزيادة قدرها (١٣٪) على الإحصاء السابق، وتشكل الإناث (٥٠,٩٪) من عدد سكان الولايات المتحدة مقابل (٥١,٣٪) قبل عشر سنوات، وقال الخبير السكاني من جامعة كاليفورنيا فيليب كوهين إن هذه الأرقام تعني أن عدد الأرامل سيقل وستزداد فرص الاختيار أمام المسنات الباحثات عن أزواج.)

والمفروض أن هذا الخبر المنشور يبعث على التفاؤل بتقليص الفجوة بين عدد الذكور والإناث إلا أنه لايزال يُظهر الفارق الكبير بين الجنسين وإذا افترضنا أن لكل رجل امرأة واحدة فهذا يعني أن تبقى حوالي ستة ملايين امرأة بدون زوج وستزداد النسبة إذا افترضنا أن عدد الذكور يتخلله الشواذ ومن لايطيقون الزواج ليصل عدد النساء اللاتي سيواجهن مصير البقاء بلا زوج إلى أكثر من ثمانية ملايين امرأة في الولايات المتحدة فقط!! وربما تهون على

مسامع من يحاربون التعدد بأن يمارس هؤلاء النسوة الدعارة ويبعن بأرخص الأسعار.

ومما يؤكد أن التعدد مجرد حلٍّ قدمه الإسلام كخيار مساعد للظروف الصعبة هو أنه نزل في سياق آية كانت تتحدث عن إعالة الأيتام والأرامل ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [سورة النساء آية ٣]، ولنفترض مثلاً أن هنالك مئة امرأة متزوجة وكل امرأة لديها أولاد وينبغي عليها إطعامهم وإعالتهم في بيئة صحراوية قاحلة، وحتى نوضح الصورة أكثر فلنفترض حدوث حرب تسببت في جعل ستين امرأة منهن أرملة، فهل تظنين أن الأنسب أن يُترك هؤلاء النساء يصارعن البقاء في ظل الظروف المعيشية الصعبة دون معيل ولا ولي؟

هذا المنطلق الإنساني هو سبب التشريع الرباني للتعدد شريطة العدل بين الزوجات وذلك في سبيل إعالة الأيتام ومعاونة الأرامل حيث دعت السنة النبوية إلى الزواج من الأرامل إذ قال رسول الإسلام: (الساعي على الأرملة كالمجاهد في سبيل الله)[1] ليتحقق بذلك الهدف النبيل من نصرة المغلوب على أمره في تلك القرون الصعبة، أنا أتفهم أن هنالك من أساء استخدام هذه الرخصة الشرعية وجعل الأمر يبدو وكأنه تسلّط جنسي والتعدد منه براء، فلاهو الذي عدل ولاهو الذي احتاج إلى تلك الزيجة.

---

١ - انظر صحيح البخاري رقم ٥٣٥٣.

وحتى أؤكد أن الغاية من التعدد ليست جنسية هو أن الآية نزلت في وقت كان في الجزيرة العربية جوارٍ وملك يمين يجوز وطؤهن بعد استئذان أهليهن ولا داعي لتشريع التعدد فيما لو كانت الغاية جنسية بحتة! لذلك تجدين من المسلمين القدامى من تزوج نساء لإعالتهن ولم يدخل حتى عليهن ومن الممكن أن نذكر زوجة الرسول عليه السلام «سناء الصلت» مثالاً على ذلك والتي ماتت دون أن يمسها محمد عليه الصلاة والسلام.

يبقى موضوع التعدد خياراً وحلًّا مطروحاً في الظروف الصعبة ودلالة على كمال الدين الذي استعد لمواجهة كافة الظروف، على عكس الأديان الأخرى التي لم تعطِ شعوبها مثل هذه الحلول وضيقت عليهم جدّاً فاضطروا إلى أن يبتدعوا في أديانهم كما فعل الملك «هنري الثامن» الذي فصل كنيسة إنجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية والسلطة البابوية ليبيح التعدد متزوجاً بذلك من ست نساء، وغيرهم من قام بنفس الشيء أيضاً كالملك «شارلمان» و«فالنتاين العظيم»وجميعهم أرحم ممن اضطروا لمباركة الدعارة».

قالت لي إيفا: وهل من العدالة أيضاً أن يكون حظ الرجل مثل حظ الأنثيين؟

قلت: بل قمة العدالة، غالبية من يعارضون تقسيم الميراث في الإسلام هم من لا يفرقون بين مفهوم العدل والمساواة، ويظنون أن

المساواة هي نفس العدل وهذا غير صحيح فالمساواة قد تكون ظالمة أحياناً وهنا تكمن الغاية من هذا التشريع، فلو ساوى الإسلام بين نصيب الرجل ونصيب المرأة من الميراث في الوقت الذي ألزم فيه الرجل بواجب النفقة على الزوجة وواجب النفقة على الأبناء والقيام باحتياجات المنزل فسيكون ذلك ظلماً للرجل، لذا جاءت العدالة السماوية في زيادة نصيب الرجل لما ينطوي عليه نصيبه من التزامات كلّفه الله بها.

لم تعلق «إيفا» على كلامي واستمرت في التحديق بي مما دفعني إلى الاسترسال في الحديث عن ما يتعلق بقوامة الرجل حيث قلت لها: إن مفهوم قوامة الرجل على المرأة هو من أكثر المفاهيم التي أسيء تفسيرها، فالقوامة هنا ليست سيادة أو سلطة للرجل ليمحو بها شخصية المرأة، بل هي القيام بالحقوق والواجبات التي أسندها الله للرجل تكليفاً لا تشريفاً، فإذا قلنا مثلاً إن فلاناً قائم على هذا العمل فالمنطق هو أن نفهم أن فلاناً هو المكلّف لإنهاء العمل بخدمته له وهو من يسعى لتأديته على الوجه المطلوب.

ومن يلاحظ في سياق الآية فهي لم تمنح أفضلية مطلقة للرجل بل ذكرت أن للمرأة أفضلية على الرجل أيضاً إذ قال الله ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة النساء آية ٣٤] ومن هنا يتضح المعنى بأن الرجل يجب أن يكون قائماً على

أداء واجباته التي فضله الله للقيام بها وفي نفس الوقت يكون قائماً على جعل امرأته تقوم بواجباتها التي فضلها الله من أجل أن تقوم بها وبالتالي لا يوجد أفضلية لجنس على آخر بقدر ماهي تكليف رقابي من أجل قيام الجنسين بما فضل الله به كل جنس..

فالرجل له أفضليات على المرأة وكذلك المرأه لها أفضليات على الرجل وهذا ما تتطلبه الطبيعة السيكولوجية للجنسين، فقمة الظلم أن ندعي القدرة على المساواة بينهما في حين أن كل واحد منهما لديه خصائصه وظروفه التي لا يقارن بها مع غيره لذا فضل الله كلًّا منهما للقيام بواجباته بما يتناسب مع طبيعته وأمرهم جميعاً بأن لا يتمنوا ما فضل الله به بعضهم على بعض ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة النساء آية ٣٢]، ولا تزال النصوص القرآنية تذكر أن الله فضّل المرأة على الرجل مثلما فضّل الرجل على المرأة فيما يخص الحقوق والواجبات وهذه قمة العدالة وتكريم الجنسين ويتجلى ذلك بقول الله في سورة التوبة ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [سورة التوبة آية ٧١].

أما فيما يخص المعاشرة فالمساواة هنا مطلوبة لذا كان قول الله في القرآن ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [سورة البقرة ٢٢٨] والتأمل في قول الله بأن لهن مثل ما عليهن يوضح بما

لا يدعو للشك حجم المساواة المطلوبة في التعامل بين الجنسين، أما ما قد يُفهم بالخطأ في تتمة الآية ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فالواضح من الوهلة الأولى أن المقصود بالدرجة هو الأفضلية، بينما نظرة سريعة على كتب التفاسير ربما تفي بالغرض حيث قال الطبري: «وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس، وهو أن الدرجة التي ذكر الله تعالى في هذا الموضع: الصفح من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها، وإغضاؤه لها عنه، وأداء كل الواجب لها عليه». وهناك من قال إن هذه الدرجة هي الطلاق، وأيّاً كانت هذه الدرجة، فليس فيها ما يدل على الأفضلية المطلقة.

ظلت «إيفا» تنظر إليّ وهي باسمة وكأنها تقول: لن تفلت هذه المرة من ضرب المرأة الموجود في القرآن، وبالفعل ما أن انتهيت من جزئية القوامة إلا وقد قالت لي: «وما هو تبريرك فيما يخص ضرب المرأة وهجرها؟» قلت: «الإجابة ستكون طويلة وشائكة على هذا الموضوع لأنه أيضاً من أكثر الأمور التي أسيء فهمها في الدين الإسلامي بما يتعلق بالمرأة» قالت: «لا مانع لدي من الاستماع».

قلت: «في البداية سأطرح مثالاً للتوضيح، دعينا نفترض أن لدي ولداً وبطبيعة الحال وبصفتي الأب سأقوم بتحذيره من مختلف الأمور السيئة حتى يحصل على تربية صالحة، فهل من المنطق أن أعاقب ابني لأنني «أخاف» عليه من الوقوع بالتدخين مثلاً وهو لم

يدخن بعد؟ أم أن أُعاقبه إذا قام بالتدخين بالفعل جزاءً له؟ بمعنى آخر أن العقاب والضرب وغيرها تكون مجازاة نظير فعل ارتكبه الإنسان، فهل من المنطق أن نعاقب ونضرب إنساناً قبل أن يقوم بأي فعل فقط لأننا نخاف عليه من الوقوع فيه؟

قالت: «طبعاً لا»، قلت: «أعرف ذلك لذا أريد منكِ أن تتأملي في الآية القرآنية، هل الآية حثت على الضرب كعقوبة للمرأة بعد نشوزها أم خوفاً على المرأة قبل النشوز ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [سورة النساء آية ٣٤]، ولاشك في وضوح قول الله ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ بمعنى أن النشوز لم يقع بالفعل فهل من المنطق أن أضرب زوجتي لأنني أخاف أن تنشز في المستقبل؟ أكيد لا، والأمر الآخر هو ما ذكره الله من العظة والهجر والضرب حيث جعلها مترابطة بحرف (واو) وهو حرف عطف يفيد المشاركة بمعنى أن العظة والهجر والضرب ليست بالترتيب كما يظن البعض، فلو كانت مرتبة كحلول مختلفة بحيث نبدأ بالعظة ثم الهجر ثم الضرب لارتبطت بالأداة (ثم) التي تفيد الترتيب والتراخي كما في غيرها من الآيات بل إن الله كان يذكر بشكل صريح قوله عن ترتيب الكفارات (فمن لم يجد) بينما هنا لايوجد ترتيب وكأنها أدوات تستخدم مرة واحدة فكيف يستقيم أن أعظ وأنا أضرب في نفس الوقت؟ حتى ندرك الإجابة على هذه

التساؤلات الطفيفة لابد أن نتفق على أن للآية أبعاداً أخرى ليست كما فهمها الغالبية بل إنها تحمل في طياتها إعجازاً وسبقاً قرآنيّاً!

قالت: «كيف!!؟»

قلت: «لابد أن نستعين هنا بعلم النفس، حيث اعتمد في علم النفس وجود (١٤) شخصية للإنسان أشهرها (الشخصية الحدية والنرجسية والهيستيرية والسايكوباتية والقلقة والشكاكة والفصامية والسادية والمازوخية) كل شخصية لها أسلوب وطريقة للتعامل معها وفهمها بالشكل الذي يكفل التعايش معها، والقرآن هنا قدم أدوات للتعايش مع الزوجة فيما لو كانت من الشخصيات اللاتي تستجيب للعظة كالقلقة والشكاكة والفصامية والهيستيرية وفيما لو كانت تتلذذ بالضرب والإذلال كالمازوخية وفيما لو كانت متسلطة كالسادية يلزم ردعها بهجرها في المضجع ولاحظ تحديد المضجع مكاناً للهجر وليس مجمل الحياة مما يوحي بأن الأمر له علاقة بفراش الزوجية، فالله وضع هذه الأدوات دفعة واحدة لتلبية احتياجات الزوجة النفسية من مختلف الشخصيات فالرجل يجهل شخصية زوجته واحتياجها منه لذا قُدمت هذه الأدوات دفعة واحدة ليرى أيها الأنسب لزوجته حتى يلبي احتياجها النفسي ويصونها من النشوز، ومايتوافق مع ذلك هو ما جاء في السنة النبوية عن أن أداة الضرب يجب أن لاتتجاوز عود السواك

وهذا دليل أن الغاية المنشودة من الضرب هي بالأثر النفسي لا بالأثر الجسدي.

يقول الدكتور مصطفى محمود حول هذا الموضوع في كتاب حوار مع صديقي الملحد ص٢٦:

«والضرب والهجر في المضاجع من معجزات القرآن في فهم النشوز.. وهو يتفق مع أحدث ما وصل إليه علم النفس العصري في فهم المسلك المرضي للمرأة. وكما تعلم يقسم علم النفس هذا المسلك المرضي إلى نوعين:

«المسلك الخضوعي» وهو ما يسمى في الاصطلاح العلمي «مازوخي» masochism وهو تلك الحالة المرضية التي تتلذذ فيها المرأة بأن تضرب وتعذب وتكون الطرف الخاضع.

والنوع الثاني وهو:

«المسلك التحكمي» وهو ما يسمى في الاصطلاح العلمي «سادزم» sadism وهو تلك الحالة المرضية التي تتلذذ فيها المرأة بأن تتحكم وتسيطر وتتجبر وتتسلط وتوقع الأذى بالغير. ومثل هذه المرأة لا حل لها سوى انتزاع شوكتها وكسر سلاحها الذي تتحكم به، وسلاح المرأة أنوثتها وذلك بهجرها في المضجع فلا يعود لها سلاح تتحكم به..

أما المرأة الأخرى التي لا تجد لذتها إلا في الخضوع والضرب

فإن الضرب لها علاج.. ومن هنا كانت كلمة القرآن:

﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ [سورة النساء آية ٣٤] إعجازاً علمياً وتلخيصاً في كلمتين لكل ما أتى به علم النفس في مجلدات عن المرأة الناشز وعلاجها».

غيّرت «إيفا» رأيها وقالت لي إنها ستعود لتكمل قراءة القرآن لأنها وجدت ما قلته لها مثيراً للاهتمام، طلبتُ منها أن تركز على جميع الجوانب في قراءتها حتى تتحرى العدالة، ففي نفس سورة النساء كان بإمكانها أن تقرأ قول الله ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [سورة النساء آية ١٩].

و في نهاية اللقاء كنت قد جهّزتُ لها ورقة جمعت فيها نصوصاً عن مكانة المرأة المذكورة في الإنجيل وكتابهم المقدس وطلبت منها أن ترد لي الجميل بأن تشرح لي أبرز ما ورد فيها مثل:

أولاً: على المرأة أن تصمت في الكنائس وإذا أرادت أن تسأل عن أمر تسأل زوجها في البيت

«لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ لأَنَّهُ لَيْسَ مَأْذُوناً لَهُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ بَلْ يَخْضَعْنَ كَمَا يَقُولُ النَّامُوسُ أَيْضاً. وَلَكِنْ إِنْ كُنَّ يُرِدْنَ أَنْ يَتَعَلَّمْنَ شَيْئاً فَلْيَسْأَلْنَ رِجَالَهُنَّ فِي الْبَيْتِ لأَنَّهُ قَبِيحٌ بِالنِّسَاءِ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي كَنِيسَةٍ» ١كورنثوس ١٤: ٣٤

ثانياً: مدى نجاسة المرأة أثناء حيضها

«وَإِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فَسَبْعَةَ أَيَّام تكُونُ في طَمْثِهَا، وَكُلُّ مَنْ يَلْمسُهَا يَكُونُ نَجساً إِلَى الْمَسَاء. كُلُّ مَا تَنَامُ عَلَيْهِ في أَثْنَاء حَيْضِهَا أَوْ تَجْلِسُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجساً، وَكُلُّ مَنْ يَلْمسُ فِرَاشَهَا يَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِمَاءٍ وَيَكُونُ نَجساً إِلَى الْمَسَاء. وَكُلُّ مَنْ مَسَّ مَتَاعاً تَجْلِسُ عَلَيْهِ، يَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجساً إِلَى الْمَسَاء. وَكُلُّ مَنْ يَلْمسُ شَيْئاً كَانَ مَوْجُوداً عَلَى الْفِرَاشِ أَوْ عَلَى الْمَتَاعِ الَّذِي تَجْلِسُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجساً إِلَى الْمَسَاء. وَإِنْ عَاشَرَهَا رَجُلٌ وَأَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ طَمْثِهَا، يَكُونُ نَجساً سَبْعَةَ أَيَّام. وَكُلُّ فِرَاشٍ يَنَامُ عَلَيْهِ يُصْبحُ نَجساً». سفر اللاويين ١٥: ١٩

ثالثاً: نجاسة المولود الأنثى ضعف نجاسة الذكر لذا تختلف فترة الطهارة

«إِذَا حَبلَت امْرَأَةٌ وَوَلَدَتْ ذَكَراً تَكُونُ نَجسَةً سَبْعَةَ أَيَّام. كَمَا في أَيَّام طَمْث علَّتهَا تَكُونُ نَجسَةً. وَفي الْيَوْم الثَّامن يُخْتَنُ لَحْمُ غُرْلَته. ثُمَّ تُقيمُ ثَلاَثَةً وَثَلاَثِينَ يَوْماً في دَم تَطْهيرهَا. كُلَّ شَيْءٍ مُقَدَّس لاَ تَمَسَّ وَإِلَى الْمَقْدس لاَ تَجِئْ حَتَّى تَكْمُلَ أَيَّامُ تَطْهيرهَا. وَإِنْ وَلَدَتْ أُنْثَى تَكُونُ نَجسَةً أُسْبُوعَيْن كَمَا في طَمْثهَا. ثُمَّ تُقيمُ ستَّةً وَستِّينَ يَوْماً في دَم تَطْهيرهَا» سفر اللاويين ١٢: ١ - ٥

رابعاً: الحكمة من وراء آلام الولادة وسيادة الرجل على المرأة

قال الرب للمرأة حين أغوت آدم ليأكل من الشجرة المحرمة «تكثيراً أكثِّرُ إتْعابَ حَبَلِكِ. بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أولاداً. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ» سفر التكوين ٣: ١٦

خامساً: الأنثى لاترث إلا عندما لايوجد ذكور

«وَأَقْبَلَتْ بَنَاتُ صَلُفْحَادَ... وَوَقَفْنَ أَمَامَ مُوسَى وَأَلِعَازَارَ الْكَاهِنِ، وَأَمَامَ الْقَادَةِ وَالشَّعْبِ، عِنْدَ مَدْخَلِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ وَقُلْنَ: لَقَدْ مَاتَ أَبُونَا فِي الصَّحْرَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا مَعَ قُورَحَ وَتَمَرَّدُوا ضِدَّ الرَّبِّ، بَلْ بِخَطِيئَتِهِ مَاتَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْقِبَ بَنِينَ. فَلِمَاذَا يَسْقُطُ اسْمُ أَبِينَا مِنْ بَيْنِ عَشِيرَتِهِ لأَنَّهُ لَمْ يُخْلِفِ ابْناً؟ أَعْطِنَا مُلْكاً بَيْنَ أَعْمَامِنَا. فَرَفَعَ مُوسَى قَضِيَّتَهُنَّ أَمَامَ الرَّبِّ. فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: إِنَّ بَنَاتِ صَلُفْحَادَ قَدْ نَطَقْنَ بِحَقٍّ، فَأَعْطِهِنَّ نَصِيباً مُلْكاً لَهُنَّ بَيْنَ أَعْمَامِهِنَّ. انْقُلْ إِلَيْهِنَّ نَصِيبَ أَبِيهِنَّ. وَأَوْصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ أَيَّ رَجُلٍ يَمُوتُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخْلِفَ ابْناً، تَنْقُلُونَ مُلْكَهُ إِلَى ابْنَتِهِ. وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ ابْنَةٌ تُعْطُونَ مُلْكَهُ لإِخْوَتِهِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِخْوَةٌ، فَأَعْطُوا مُلْكَهُ لأَعْمَامِهِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَعْمَامٌ، فَأَعْطُوا مُلْكَهُ لأَقْرَبِ أَقْرِبَائِهِ مِنْ عَشِيرَتِهِ، فَيَرِثَهُ. وَلْتَكُنْ هَذِهِ فَرِيضَةَ قَضَاءٍ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى» سفر العدد ٢٧: ١ - ١١

سادساً: إذا مات زوج المرأة دون أن تُنجب منه ولداً ذكراً، فيُفْرض عليها أن تتزوج أخاه

«إِذَا سَكَنَ إِخْوَةٌ مَعاً وَمَاتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَلَيْسَ لَهُ ابْنٌ فَلا تَصِرِ امْرَأَةُ الْمَيِّتِ إِلَى خَارِجٍ لِرَجُلٍ أَجْنَبِيٍّ. أَخُو زَوْجِهَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا وَيَتَّخِذُهَا لِنَفْسِهِ زَوْجَةً وَيَقُومُ لَهَا بِوَاجِبِ أَخِي الزَّوْجِ. وَالْبِكْرُ الَّذِي تَلِدُهُ يَقُومُ بِاسْمِ أَخِيهِ الْمَيِّتِ لِئَلا يُمْحَى اسْمُهُ مِنْ إِسْرَائِيلَ. «وَإِنْ لَمْ يَرْضَ الرَّجُلُ أَنْ يَأْخُذَ امْرَأَةَ أَخِيهِ تَصْعَدُ امْرَأَةُ أَخِيهِ إِلَى الْبَابِ إِلَى الشُّيُوخِ وَتَقُولُ: قَدْ أَبَى أَخُو زَوْجِي أَنْ يُقِيمَ لأَخِيهِ اسْماً فِي إِسْرَائِيلَ. لَمْ يَشَأْ أَنْ يَقُومَ لِي بِوَاجِبِ أَخِي الزَّوْجِ. فَيَدْعُوهُ شُيُوخُ مَدِينَتِهِ وَيَتَكَلَّمُونَ مَعَهُ. فَإِنْ أَصَرَّ وَقَالَ: لا أَرْضَى أَنْ أَتَّخِذَهَا تَتَقَدَّمُ امْرَأَةُ أَخِيهِ إِلَيْهِ أَمَامَ أَعْيُنِ الشُّيُوخِ وَتَخْلَعُ نَعْلَهُ مِنْ رِجْلِهِ وَتَبْصُقُ فِي وَجْهِهِ وَتَقُولُ: هَكَذَا يُفْعَلُ بِالرَّجُلِ الَّذِي لا يَبْنِي بَيْتَ أَخِيهِ. فَيُدْعَى اسْمُهُ فِي إِسْرَائِيلَ بَيْتَ مَخْلُوعِ النَّعْلِ» سفر التثنية ٢٥: ٥-١٠

سابعاً: الرجل مجد لله بينما المرأة مجد الرجل ومخلوقة لأجله

«الرَّجُلَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ صُورَةَ اللهِ وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ. لأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ مِنَ الْمَرْأَةِ بَلِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ. وَلأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ بَلِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ» بولس في رسالته الأولى إلى كورنثوس ١١: ٣

ثامناً: يجب حلق شعر المرأة التي لاتغطي رأسها في الصلاة

«إذا الْمَرْأَةُ كَانَتْ لاتَتَغَطَّى فَلْيُقَصَّ شَعَرُهَا وَإِنْ كَانَ قَبِيحاً بِالْمَرْأَةِ أَنْتُقَصَّ أَوْ تُحْلَقَ فَلْتَتَغَطَّ» بولس في رسالته الأولى إلى كورنثوس ١١: ٥

تاسعاً: قطع يد المرأة إذا حاولت فض النزاع بين زوجها وآخر

«إذا تَخَاصَمَ رَجُلانِ رَجُلٌ وَأَخُوهُ وَتَقَدَّمَت امْرَأَةُ أَحَدِهِمَا لِتُخَلِّصَ رَجُلَهَا مِنْ يَدِ ضَارِبِهِ وَمَدَّتْ يَدَهَا وَأَمْسَكَتْ بِعَوْرَتِهِ فَلتقْطَعْ يَدَهَا وَلا تُشْفِقْ عَيْنُكَ» تثنية ٢٥: ١١ - ١٢

تطول بذلك القائمة التي أعطيتها للسيدة «إيفا» لتوضح لي بدورها المقصود هنا، رغم أنني أعرف سلفاً ماهو المقصود من واقع بحثي في الكتاب المقدس ولكني كنت آمل أن أحصل منها على هذا التوضيح، وعدتني أن ترد علي أو تبعث لي بالتوضيحات على البريد الإلكتروني.. فمضت الأيام والشهور والسنون وانتهى عقد عمل «إيفا» الذي يربطها بالسعودية، وإلى يومنا هذا لم يصلني شيء ومازلت في انتظار الرد، فقط لإيماني بأن وعد الحر دين، سأثقل على نفسي بالمزيد من الانتظار.. رغم وضوح الأمر..!



الفصل الرابع

لماذا (اللّه) هو الحق من بين الآلهة؟..

نعيش اليوم بين شعوب عديدة يتخللها ديانات ومعتقدات وآلهة ومقدسات كثيرة فهناك اليهود والنصارى والمسلمون والزرادشتية والبوذيون والهندوس والسيخ والشينتوية والشيفية والمانوية والطاوية والتيرافادا والكونفوشيوسية وغيرهم كثير، وجميع معتنقي هذه الأديان بكافة طوائفها يؤمنون أنهم هم الحق وغيرهم على باطل، هم اليقين وغيرهم في شك، كل ديانة تؤمن بأن إلهها هو الصواب، لذا ماهي الإجابة التي من الممكن أن يجيبها أي شخصٍ منهم لو سألوه عن ربه وقالوا له: «أثبت لنا أنك تعبد الإله الحق»؟ ماذا لو تعرض أي مسلم لسؤال وقيل له بأن هنالك ملياري بوذي وهندوسي حول العالم فما الذي يجعل إلهك حقّاً ويجعل آلهتهم باطلة؟ ونفس السؤال لو تم توجيهه إلى يهودي أو مسيحي؟ ما المانع أن يكون خالق الكون هو «بوذا» عند البوذيين؟ أو «كريشنا وفيشنو» عند الهندوس؟ أو «أهورامزدا» عند

الزرادشتيين؟ أو «إلوهيم» عند اليهود؟ أو «الأب والابن والروح القدس» عند المسيحيين؟ أو «الله» عند المسلمين؟.

أتذكر أنني طرحت هذا السؤال مازحاً مع أصدقائي وقلت لهم: تخيلوا أني «لاديني» بمعنى أني مؤمن بوجود خالق لهذا الكون ولكني لا أعتنق أي دين وما زلت في مرحلة البحث عن دين وأريد أن أعرف أي خالق هو الحق من بين جميع آلهة الديانات فسألتكم وقلت: أثبتوا لي أيها المسلمون أنكم تتبعون الإله الحق..؟ كانت إجاباتهم متضاربة ولكني سأستعرض أبرز ما قالوه لي لأنهم عيّنة ومن الممكن تعميم إجاباتهم، حيث قالوا لي بأن الإسلام دين أتى بمعجزات علمية في القرآن! قلت لهم: نعم ولكن حتى معتنقو الأديان الأخرى يؤمنون بتفسيرهم للمعجزات العلمية في كتبهم! قالوا: ولكن القرآن مختلف وله أثر يثبت صحته إذا تمت قراءته على إنسان تتلبس به الجن فيبدأ يرفس ويركل من قوة تأثير كتاب الله!! قلت لهم نعم صحيح ولكن حتى اليهود والنصارى والهندوس لديهم ما يعرف بالـ «exorcism» لاستخراج الجن والأرواح الشريرة من مرضاهم الذين يصرخون ويرفسون ومن ثم يتماثلون للشفاء فهل يعني ذلك صحة نصوصهم وكتبهم؟

قالوا لي: ولكن الإسلام دين توحيد بينما الأديان الأخرى متعددة الآلهة! قلت لهم: غير صحيح هناك ديانات توحيدية، فاليهود مثلاً

يؤمنون برب بني إسرائيل الواحد! وكذلك الزرادشتية! قالوا لي: لكن أتانا النبي محمد من الله وأخبرنا بذلك! قلت: جميع الأديان السماوية جاءت إليهم الأنبياء والرسل! قالوا: ولكن محمد مذكور في التوراة والإنجيل! قلت: نعم ولكنهم لايؤمنون به فهم ينتظرون أن يكون النبي القادم من سلالة بني إسرائيل بل إن اليهود لايؤمنون حتى بالمسيح ابن مريم لذلك زعموا أنهم قتلوه على الصليب لافترائه وادعائه أنه المسيح المنتظر! قالوا بعد تفكير:.. ولكننا نشعر بالراحة والسعادة النفسية جراء اتباعنا الإله الحق وهذا ما لم يشعر به غيرنا! قلت لهم: هذا الأمر ليس مقياساً حتى تمنح نفسك أفضلية الشعور بالسعادة، فالبوذيون والهندوس هم أكثر من يتغنون بالسعادة الداخلية عن طريق الاسترخاء واليوغا، فقالوا: الله أعلم!

***

مما لاشك فيه أن للسؤال أبعاداً فلسفية تستدعي التعمق في التفكير مع النفس ليدرك الإنسان أن السؤال منطقيٌّ بالفعل، وتتطلب الإجابة عليه أن يتجرد الشخص من نفسه وميوله ويقف خصيم عقله ويجعل عقله يستعرض الأدلة والبراهين بكل حيادية ويحكم عليها بعيداً عما يؤمن به أو يدين له.

إذا افترضنا أن عقل الإنسان هو المسؤول عن وعيه وإدراكه للأشياء، فبه يدرك الصواب والخطأ وبه يدرك الحق والباطل، وبه يتوصل إلى حقائق الأمور والغيبيات وبه يعرف بأن للكون خالقاً وبأن للحياة بداية وبأنه مامن شيء جاء بدون سبب وما من سبب بدون متسبب، فبالعقل يُعرف كل ما يُعقل، وكما يردد المسلمون دائماً قولهم «لم نرَ الله بالعين ولكن عرفناه بالعقل» فماذا عرفوا عنه بالعقل؟ هل عرفوا عنه ما يميزه عن غيره ويؤكد لهم صحته؟ ربما لن يعرفوا ذلك إلا عندما يعرفون عن غيره من آلهة الديانات الأخرى.. فأحياناً يحتاج المرء أن يرى ما لدى غيره حتى يدرك مزاياه، وهذا ما يسمى علميّاً بالملاحظة، فلنرَ ونلاحظ ماذا لدى الأديان الأخرى من آلهة وكيف يمكن لها أن تجاري «الله» ومن ثم نعرض ما توصلنا له على العقل البشري وعلى العقل أن يحكم بكل حياد.

تنتشر الأديان بكافة طوائفها الكثيرة حول العالم ولكن نستطيع أن نحصرها على وجه العموم وبشكل تقريبي بعيداً عن تشعباتها بالقول إن هنالك ستة أديان عالمية الآن وهي (الهندوسية والبوذية والزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلام) وكل ديانة فيهم لديها إله معبود ترى أنه هو الحق ولكن دعونا نستعرض ذلك على عقولنا لنرى مدى رؤية أحقية كل إله ابتداء بالديانة الهندوسية.

***

الإله المعبود وخالق الكون لدى الديانة الهندوسية اسمه «فيشنو» والذي تظهر صورته دائماً بأربعة أيادٍ ممسكاً بزهرة اللوتس وبقوقعة، وشكله يميل إلى الجنس الأنثوي ولونه أزرق شاحب، حسب الكتاب المقدس للهندوس (الفيدا) فإن ما يميز الإله فيشنو هو أنه نزل إلى الأرض عشر مرات في كل مرة يكون متجسداً على هيئة تلائم سبب نزوله.

فمرّة نزل إلى الأرض على هيئة سمكة لينقذ البشر عندما غرقت الأرض! ومرّة نزل على هيئة سلحفاة لينقذ كنوز الأرض من العفاريت ومرّة على هيئة خنزير ليقتل الشيطان ويحمي الأرض من محاولة سرقته لها! ومرّة على هيئة أسد ليحارب أخا الشيطان الذي أراد الانتقام منه بعدما قتل أخاه!! ومرة على هيئة مقاتل اسمه «باراشوراما» ليشارك في ملحمة «المهابهارتا» فيبلي بلاء حسناً! ومرة على هيئة رجل وسيم وشجاع اسمه «راما» الذي تنسب له ملحمة «الرامايانا» والتي تزوج بها امرأة اسمها «سيتا»!

وغير ذلك كثير من الهيئات التي تثبت أن إله الديانة الهندوسية من الممكن أن يكون على هيئة سلحفاة اسمها «كورما» أو خنزير اسمه «فاراها»أو بقر أو سمك! وأنه من الممكن أن ينزل ويحارب الشيطان ويقاتل ويُجرح ويحب ويتزوج وغيرها من نتائج الخلط بين السلوك البشري والخيال.



«صورة تخيلية لفيشنو إله الهندوس»

تأتي بعد ذلك الديانة البوذية التي لاقت رواجاً وانتشاراً شديداً في شرق آسيا فهي تعد الديانة الأكبر هناك حيث يعتنقها أكثر من مليار نسمة، تحث الديانة على الإيمان بتعاليم الإله «بوذا» وجعله خالقاً للكون ومدبراً له، على الرغم من أن «بوذا» نفسه لم يأمر أتباعه بعبادته أو تأليهه ولم يتطرق أصلاً لفكرة الإله أو الخالق!

وإنما كان يدعوهم فقط لتعاليمه ولكنهم فعلوا ذلك بعد وفاته ليجعلوا منه إلهاً يُعبد، تنص فكرة الديانة على اتبّاع تعاليم «بوذا» ووصاياه الإنسانية كالرفق والرحمة والتأمل والزهد وحفظ النفس والمال والعرض، ولكن ما يضرب أركان هذه الديانة هو انقسام معتنقيها إلى قسمين، القسم الأول اسمه «هنايان» وهو القسم أو الطائفة التي تنكر وجود خالق ولاتؤمن بأن «بوذا» إله بقولهم ليس سوى رجلٍ صالح تحلى بالأخلاق والصفات الكريمة، أما القسم الثاني فاسمه «ماهيان» وهذا القسم أو الطائفة تؤمن بألوهية «بوذا» وتقول إنه نور وليس جسماً وإنه هو الإله الأعلى والخالق،[1] وفي الحقيقة هذا تخبط واضح لايدل على وضوح تشريعي في تحديد ماهية الإله لديهم؟ ووجود مثل هذا التخبط في إثبات ألوهية «بوذا» بين أبناء الديانة الواحدة يؤكد أن الإله لديهم لايزال محل شك! ولو افترضنا أن «بوذا» هو الإله الخالق حسب اعتقاد «الماهيان»! فأين كان «بوذا» قبل ولادته بالآف السنين عن كونه الذي خلقه! وهل هذا يعني أن إلههم وُلد من بطن امرأة نتيجة لعملية جنسية طبيعية بين ذكر وأنثى؟ ورضع من صدر امرأة وأكل وشرب وكبر وتزوج ومات!؟.. نستطيع أن نقول نعم! فهكذا يعتقدون!

وبعد ذلك تأتي واحدة من أكثر الديانات المنتشرة حول العالم

---

١ - انظر كتاب أديان الهند الكبرى - د. أحمد شبلي.

في الوقت الحالي وهي الديانة الزرادشتية، وما يميز الزرادشتية عن غالبية الديانات الوثنية هو أنها ديانة توحيدية أي تؤمن بإله واحد اسمه «أهورا مازدا» والتي تعني الرب الحكيم، ومن أبرز صفاته أنه كامل القوة والحكمة والجمال والعلم والصحة وأنه هو خالق الكون والإنسان والحياة ويمثل دائماً جانب الخير، وعلى الرغم من أنها ديانة تؤمن بوحدانية الخالق إلا أن بها ما ينتقص من ملكوت الخالق لسائر الأمور وهو ما يُعرف بالثنائية في الكون بين الخير والشر، فحسب ما ورد في كتاب (الآفيستا) لتعاليم «زرادشت»، أن الخير مصدره الإله «أهورا مازدا» بينما مصدر الشر هو شيطان اسمه «أنجرا مانيو» الذي يمثل كل الجوانب السلبية في الحياة كالموت والمرض والجهل والقبح والبخل والكذب وسائر الآثام ويمكن اعتبار فلسفة «زرادشت» تكمن في أن العالم يسير ويتحرك إلى الأمام تحت تأثير الصراع بين قوتين متساويتين في المقدار ومتضادتين في الاتجاه، وهذا مايؤكد وجود ندّية بين الخير والشر بنفس القوة، فالشيطان هنا يعادي ما يريده الخالق من خير ويحاول أن يحاربه على ذلك وكأن الشيطان مستقل في كيانه ولا يملك خالق هذا الكون مصيره..!

سأتحدث الآن عن الديانات الإبراهيمية أو التي تُعرف بالسماوية أيضاً، وهي اليهودية والمسيحية والإسلام، حيث يؤمن معتنقو هذه الديانات بأنهم يعبدون إلهاً واحداً، ولكن لو كانت الأمور بهذه

البساطة في وحدانية الإله لما كانت لنا حاجة في أن يكون هنالك دين إسلامي ينسخ ما قبله، فظهور الإسلام هو نتيجة لما جرى على الأديان السماوية التي تسبقه من تحريف وتسييس وتغيير في النصوص المقدسة داخل كتبهم بشكل أدى إلى إشراكهم بالله الذي جعلوا له ولداً، ووصفوه بأسوأ كلمات النقص التي لاتحقق لذاته الكمال المطلوب.

ففي الديانة اليهودية تورد لنا التوراة نصوصاً تدل على أن الإله يندم ويتحسر كثيراً! والندم صفة لاتليق إلا بالبشر الذي يجهل الغيب، فكيف يكون عالم الغيب وكاتب الأقدار أهلاً للتحسر على ما فات والندم على ذلك؟

فقد ورد في سفر التكوين الإصحاح ٦: «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هي شريرة فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته»

ورد أيضاً في سفر الخروج الإصحاح ٢٣: «فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه»

وفي سفر يونان الإصحاح ٥: «أن أهل نينوى نادوا بصوم لعل الله يندم عن حمو غضبه فلما رأى الله أعمالهم ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم»

وفي سفر صاموئيل الأول الإصحاح ١٥: «وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً: ندمت على أني قد جعلت شاول ملكاً، لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي. فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى الرب الليل كله».

وفي سفر الملوك الأول الإصحاح ٢١ و٢٢: «وقد غضب الرب على آخاب، وأرسل الروح القدس ليضله، ولكن آخاب تواضع للرب فندم الرب على إغوائه آخاب، ثم عاد آخاب وغضب الرب على ابن آخاب بدلاً منه، وجعل الشر عليه بدلاً من أبيه... وندم الرب على أنه فعل الشر بابن آخاب أيضاً».

وفي سفر الملوك الثاني الإصحاح ٢٠: «وعندما غضب الرب على الملك حزقيال وقرر أن يميته، بكى حزقيال وقام وصلى، فندم الرب ورجع عن قراره وزاده خمس عشرة سنة من العمر».

كما ورد أيضاً في التوراة أن الرب ينام ويستيقظ، فقد ورد في سفر المزامير الإصحاح ٧٨: «فاستيقظ الرب كنائم جبار معّيط من الخمر».

وفي سفر المزامير أيضاً الإصحاح ٤٤: «استيقظ. لماذا تتغافى يا رب. انتبه. لا ترفض إلى الأبد».

كما ورد في التوراة أيضاً أن الرب يتعب لذا احتاج إلى الراحة

في اليوم السابع من خلق الكون، وذُكر ذلك في سفر التكوين الإصحاح الثاني: «وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً».

وغير ذلك كثير من أن الرب يأمر بالسلب والسرقة والزنى وأكل الربا والتعري ودعمه للعنصرية التي وردت في سفر أشعياء الإصحاح (٤٩) بأمره لأي أجنبي أن يسجد لأي يهودي ويلحس غبار قدميه! وأيضاً عشق الرب للحم المشوي كما ورد في سفر العدد الإصحاح (١٤) وهو يشتكي لموسى بمنظر الضعيف والمهزوز: «وقال الرب لموسى: حتى متى يهينني هذا الشعب!!! حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليّ؟! ولكن ما أن قدم له بنو إسرائيل اللحم المشوي الذي يحبه جدّاً حتى انبسطت أساريره، وعفا عن بني إسرائيل وأعطاهم كل طلباتهم، وندم على ما نوى أن يفعله بهم وكتب ميثاقاً جديداً ليعطيهم أرض كنعان».

وأيضاً حسرة الرب ولومه لنفسه وتوعدها بالويل كما جاء في سفر أرميا الإصحاح ١٠: «ويل لي من أجل انسحاقي، فجرحي لاشفاء منه».

كذلك جهل الرب وعدم علمه بالغيب حيث كان يبحث عن

آدم في الجنة بعدما أكل من الشجرة واختبأ خوفاً من الرب كما جاء في سفر التكوين الإصحاح ٣: «سمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت؟».

وغير ذلك كثير من الانتقاص وتشبيه الرب بالحيوانات وأنه يخرج دخاناً من أنفه وناراً من فمه، وصفاتٌ أُخرى لاتعطي للإله الحق كماليته التي يجب أن يكون عليها.

ويبقى أقبح ما ذُكر عن الرب في التوراة هو أنه معرض للخداع، ويتضح ذلك من قصة النبي «يعقوب» والذي تصفه التوراة بأنه نبي مخادع ولايستحق النبوة لأنه سرقها من أخيه الأكبر «عيسو» كما ورد في «سفر التكوين» الإصحاح ٢٥، حيث تروي لنا التوراة قصة نبوة «يعقوب» بأنها لم تكن مقررة له لأنه ليس الابن البكر للنبي «إسحاق» وإنما كان الابن البكر هو أخاه «عيسو»، وعندما كبر «إسحاق»في عمره وأصبح كفيف البصر أراد أن يبارك لابنه «عيسو» بما يسمى (بركة البكورية) حتى يصبح «عيسو» بذلك نبيّاً بعد أبيه «إسحاق» ولكن ما حصل أن «يعقوب» استغل خروج أخيه «عيسو» للصيد فقام بالتنكر على شكل أخيه الأكبر وذلك بوضع فرو على رأسه ليتشبه «بعيسو» الذي كان كثير الشعر ويتمكن بذلك من خداع والده الأعمى «إسحاق» فيسرق بركة النبوة بدلاً من أخيه، وبالفعل هذا ما

حصل حين ذهب إلى والده «إسحاق» فتحسس الأب الضرير رأس «يعقوب» ليتثبت من حقيقة الشخص الذي أمامه وحين لمس رأسه المغطى بالفرو قام بمباركته وتسليم النبوة له ظنّاً منه أنه «عيسو»، ليصبح بذلك «يعقوب» نبيّاً بالخداع وعندما اكتشف «إسحاق» أنه خُدع بذلك كان الأوان قد فات ولم يستطع أن يبارك «عيسو» من جديد، فبكى «إسحاق» كثيراً لأن ابنه «يعقوب» خدعه، وكأن المخدوع هنا رب «إسحاق» الذي تجعله هذه القصة إلهاً ضعيفاً يقبل بنبيٍّ مخادع!!.

الديانة المسيحية لاتختلف كثيراً عن اليهودية في اعتقادهم تجاه الرب، نظراً لأن المسيحيين يؤمنون بالتوراة ويضيفونها إلى إنجيلهم المقدس تحت مسمى (العهد القديم)، ولكن المسيحية تضيف عقيدة الثالوث والتي تعني أن الله يتمثل في ثلاث هيئات وهي الأب والابن والروح القدس، أي أنهم يؤمنون بأن عيسى بن مريم أحد هؤلاء الآلهة الثلاثة وبذلك نستنتج أن الدين المسيحي يرى أن الإله (عيسى) وُلد من رحم امرأة وكبر وترعرع وأكل وشرب ومن ثم وُضع على الصليب وعُذّب وقُتل دون أن يملك هذا الإله القدرة على المقاومة وتخليص نفسه من الذين صلبوه..! وذلك بحجة أنه يخّلص الناس من خطاياهم ويطهرهم منها بأن يجعل نفسه فداءاً لهم عوضاً عنهم .. وكأن هذا الإله لايمكنه أن يغفر خطايا الناس من الأصل، دون الحاجة لفكرة «الخلاص» ..!

بعد ذلك يأتي دور الإسلام، فعلى الرغم من كونه أحد الأديان السماوية إلا أنه هو الدين الوحيد من بينها الذي ذكر أن خالق الكون هو إلهٌ كامل ومستقل تجتمع فيه كل صفات الكمال ولاتشوبه نواقص أو صفات بشرية كالندم والحسرة والنوم والجوع والتعب، فالله حسب الديانة الإسلامية له الملك وحده لاشريك له، لم يلد ولم يولد، لاتأخذه سنة ولانوم، له المثل الأعلى وليس كمثلهِ شيء، هو خالق الكون دون أن يمسه تعبٌ ولا لغوب، هو خالق الناس والموت والحياة والخير والشر ولم يندم على عصيانهم له لأنهم هم بحاجته وهو غنيٌّ حميد، له تسعةٌ وتسعون اسماً تحقق له ذلك الكمال والمجد كالرحمن والرحيم والمجيد والقدوس والخالق والبارئ والمصور والملك والقهار والمتكبر والجبار والمهيمن وأكثر من ذلك.

***

الآن لا خيار لديك سوى الرجوع إلى عقلك، إن كنت تزعم أن عقلك هو من قادك لأن تتوصل إلى حقيقة وجود خالق لهذا الكون، فلابد من أن عظمة هذا الكون ودقة تصميمه وبديع صنعه ومختلف روائعه وتوازن المعيشة بداخله قادتك للتوصل بأن صفات خالقه يجب أن تعكس ذلك بعظمته وكماله ووحدانيته وبديع صنعه وغنى نفسه ومختلف صفات الكمال والعظمة التي

تليق به، بعد توصل عقلك إلى الصفات التي يجب أن يكون عليها الخالق، ابدأ بعرض مواصفات كل إله من بين آلهة الأديان على عقلك واجعله يحدد أي دين كفل للإله هذه الصفات، وسيكتشف عقلك أن الإسلام وحده هو من فعل ذلك.

قد يقول أحدهم بأني انتقصت من غيري من الديانات في هذا السرد حتى أُبرز صفات إله المسلمين، فأقول: غير صحيح، لأن جميع ما ذكرته هو من فلسفة تلك الديانات ومن كتبهم وما يؤمنون به ولكني سلكت مسلك (إيقاظ العقل)وذلك بعرض مواصفات الآلهة إجمالاً بكل حياد ومن ثم مقارنتها بعضها ببعض وأيهم أقرب إلى العقل أكثر من ناحية صفات الألوهية، ولم يكن هنالك وجهٌ للمقارنة بين (الله) من ناحية الكمال والملكوت والجبروت وبين غيره من الآلهة الناقصة والضعيفة وذات الأيدي المغلولة.

يخبرنا القرآن عن أن النبي «إبراهيم» استخدم أسلوب (إيقاظ العقول) مع قومه عندما تغافلهم وقام بتكسير أصنامهم ووضع الفأس بيد الصنم الأكبر، وحين عاد قومه اتهموه بأنه هو من قام بتكسير الأصنام ولكنه قال لهم اسألوا الصنم الكبير فهو من قام بتكسيرها: ﴿ **قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ** ﴾ [سورة الأنبياء آية ٦٣] ولم يكن «إبراهيم» يكذب بذلك بقدر ماكان يريد أن يوقظ عقول قومه وينيرها لهم بأن ما يعبدونه من أصنام لاتنطق ولاتتحرك ولا تتناسب صفاتها مع ما يجب

أن يكون عليه خالق الكون، وبالفعل حدث ذلك حيث يورد لنا القرآن قول الله عن قوم إبراهيم: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة الأنبياء آية ٦٤،٦٥] ويمكن ملاحظة جملة ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ وهي ما تفيد خلود الإنسان إلى نفسه وتفكّره بعقله عن حقيقة ما يعبد وما يؤمن به وما يدين له من أفكار ومعتقدات، فحين يعرض الإنسان كل ذلك على عقله وبنية صافية للوصول إلى الحقيقة، فسيقوده ذلك إلى حقيقة الصفات التي يجب أن يكون عليها الإله الحق، وهي أن يكون كاملاً وجباراً وواحداً لاشريك له، لايبكي ولايندم ولايتحسر ولايجوع ولاينزل في هيئات مختلفة ولايتشبه بالحيوانات وليس من بني البشر ولم يلد ولم يولد ولم يرضع ولم يتزوج ولم يُقتل أو يمت، فهو مالك الملك وبيديه كل شيء، الخير والشر، الموت والحياة، المرض والشفاء، الفقر والغنى، النفع والضر، وليس لديه شيطانٌ يحاربه بكل ندية واستقلالية تحول دون ملكه لسائر الأمور، إذا استطعت بعد خلودك مع نفسك وعقلك إلى البحث عن أين يكون هذا الإله الكامل والذي لاتشوبه شائبة ولانقص، فلن تجد بعد بحثك إلا إله المسلمين.. وستعرف حينها لماذا (الله) حق من بين جميع الآلهة..

***

الفصل الخامس

بين معجزات القرآن وغرائبه...

نزل القرآن على رسول الإسلام قبل أكثر من (١٤٠٠ عام)، وإلى يومنا الحالي ونحن نقرؤه كاملاً دون تحريف أو تغيير، ربما نعيش اليوم في زمن ابتعدنا به كثيراً عن فصاحة اللغة العربية لذا قد لانستوعب جميعاً إلى أي مدى قد تصل فصاحة وبلاغة هذا الكتاب، ولكن حتى تتصور ذلك تخيل أنك تعيش في زمن قريش حيث كانت الفصاحة قد بلغت أوجها وكان لدى العرب آنذاك مضاربُ للتباهي بالشعر والبلاغة، فيأتي محمد النبي الأُمّي الذي لايقرأ ولايكتب بهذا الكتاب متحدياً قريشاً بأن يأتوا بسورة من مثله فلا يستطيعون، فيجبرهم خذلانهم على البحث لهم عن عذرٍ لتبرير فشلهم، فلا يكون أمامهم إلا اتهام محمد بالجنون كناية عن استعانته بالجن في جلب هذا القرآن، ثم تطورت التهمة فقالوا إنه ساحر ليوهموا أنفسهم بتفسير يليق بتفوق بلاغة القرآن على قدرات البشر، فيستمروا بالمكابرة وبمحاربة آياته إلى أن اضطر الوليد بن

المغيرة وهو أحد كبار قادة وفصحاء قريش أن يقول عن القرآن: (لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن به لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه) لينطق بالحق أحد ألد أعداء القرآن ويثبت أن بلاغة آياته لا يقف أمامها إلا مكابر، أما من كان يبحث من قريش عن الحقيقة، فقد دخل في دين الإسلام دون تردد، لأنه يعرف وبصفته عربيّاً فصيحاً، أن كلام القرآن من السماء.

نزل القرآن مصححاً للمعتقدات الخاطئة ومتمماً للأخلاق الحسنة وجالباً معه الكثير من النبوءات، منها ما لم يتحقق إلى الآن ومنها ما تحقق ليؤكد صدق القرآن كفتح مكة ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [سورة الفتح ٢٧] وفتح خيبر ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [سورة الفتح ١٨] وخسارة جموع المشركين في يوم بدر ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [سورة القمر ٤٥] وآية مثل هذه كان من الممكن أن تنسف القرآن لو خسر المسلمين يوم بدر كما خسروا يوم أُحد ولكنه صدقُ الوحي الإلهي.. وكذلك خسارة الروم في معركتهم الأولى ضد الفرس عام (٦١٩م) ومن ثم انتصار الروم على الفرس في المعركة التي تلتها بعد بضع سنين في عام (٦٢٧م) ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ [سورة الروم آية ١-٤].

وأيضاً موت أبي لهب وامرأته حمالة الحطب على كفرهما وذلك بعد عشر سنين من نزول سورة (المسد) التي بشّرت أبا لهب بدخول النار ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾ [سورة المسد آية ٣-٥].

ولو كان القرآن من عند غير الله لما جازف محمد بتحديد مصير أبي لهب بدخول النار لأن ذلك سيمنح أبا لهب فرصة لتكذيب القرآن واعتناق الإسلام ولو زيفاً لكي يحرج محمداً ولكن ما حصل أن أبا لهب وحتى عندما رقت قلوب من كانوا حوله للإسلام من سادات قريش وغيرهم مثل عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، بقى هو وامرأته على شركهما ليؤكدا أن القرآن وحيٌ يوحى.

بعد وفاة الرسول وانقطاع الوحي تفشت ظاهرة ادعاء النبوة بين أوساط العرب وذلك نظير أسباب إما سياسية كأحقية الخلافة أو قبلية كمنازعة قريش السيادة أو اقتصادية كالتخلص من فريضة الزكاة التي رآها هؤلاء المرتدون أشبه بالضريبة على أموالهم، وهنا كان اختبار فعلي لهؤلاء الأنبياء الجدد - كما يزعمون - بالإتيان بقرآن جديد يؤكد للناس أن قرآن محمد لايستحق أن يكون معجزة بلاغية وأن بمقدور أي عربي فصيح الإتيان بآيات من مثله، فجاء أحد أدعياء النبوة آنذاك واسمه طلحة بن خويلد الأسدي بالقرآن

الذي يدعي أنه نزل عليه فقال: (إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم شيئاً فاذكروا الله قياماً فإن الرغوة فوق الصريح)

كما يذكر التاريخ أيضاً ما فعله رحمان اليمامة الشهير بلقب مسيلمة الكذاب وادعائه للنبوة، حيث كانت أشهر السور التي زعم أنها نزلت عليه هي سورة الفيل ويقول فيها مسيلمة: (الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وبيل، وخرطوم طويل) وأيضاً سورة الضفدع (يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين) وكذلك محاولته لتقليد سورة العاديات حيث قال مسيلمة في قرآنه: (والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، لقد فضلتم على أهل المدر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والباغي فناوئوه).

ولم تكن سجاح بنت الحارث التميمي ببعيدةٍ عن مسيلمة الذي تزوجها فيما بعد حيث ادعت النبوة هي أيضاً وكانت توظّف قرآنها لأمورٍ سياسية كقولها: (عليكم باليمامة، دفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة)، كما قالت أيضاً: (يا أيها المؤمنون المتقون، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشاً

قوم يعتدون)، كل ذلك وأكثر لم يكن له تأثيرٌ كبير على العرب بل زادهم يقيناً في مصداقية القرآن مقارنةً بما ادعوه وذلك لما في كلامهم من ضعفٍ في الفصاحة وانعدامٍ في البلاغة وافتقار لأبجديات البيان وجمالية المعنى.

بل إن العرب كانت تضرب المثل فتقول: (فلان أكذب من سجاح)، ويسخر الجاحظ في كتابه (الحيوان) من سورة الضفدع التي قالها مسيلمة إذ كتب: (ولا أدري ما هيج مسيلمة على ذكرها)، استمر العرب بمختلف العصور على نفس المنوال في محاولاتهم لمقارعة القرآن والإتيان بمثله ولكن الدافع كان مختلفاً حيث كان الغرور والتباهي بالفصاحة هو السبب السائد الذي جعل البعض يظن أن بإمكانه مجاراة القرآن الكريم، فيذكر لنا التاريخ ثورة ما يسمى بالزندقة أو الهرطقة في عصور الدول الإسلامية (الأموية والعباسية) وذلك من خلال ما فعله ابن المقفع وأبو العلاء المعري وابن الراوندي وبشار بن برد.

ولن يتوصل أحدٌ إلى ما توصل له الشاعر العظيم أحمد بن الحسين الكوفي في ادعائه للنبوة، حيث ظن أنه بلغ من الفصاحة منتهاها عندما جاء بقرآن يقول فيه: (والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي أخطار، امض على سنتك

واقف أثر من كان قبلك من المرسلين، فإن الله قامع بك زيغ من
ألحد في الدين، وضل عن السبيل) ومع ذلك ورغم الفصاحة في
كلماته إلا أن الناس من حوله لم يصدقوه بل وأطلقوا عليه لقب
(المتنبي)..! أي الذي ادعى النبوة كذباً.. فمن ذا الذي يستطيع أن
يجاري القرآن ويأتي بمثله طالما أن المتنبي عجز عن ذلك؟

١١) سُورَةُ الفُرقَانِ

بسم الآبِ الكلمةِ الروحِ الإلهِ الواحدِ
الأوحدِ

١) فُرقَانٌ حَقٌّ لا رَيبَ فيه يَهدي للتي هي
أقومُ فاتَّبعوهُ واتَّقوا لعلكم تُرحَمونَ .

٢) إن هو إلا نورُ الحقِّ يهدي الضالينَ
ويفضحُ الإفكَ وما يكتمُ الظالمونَ .

٣) أنزلناهُ بالحقِّ مُصدِّقاً لدينِ الحقِّ لِنُظهِرَهُ
على الدينِ كُلِّهِ ولو كَرِهَ
الكافرونَ .

«مقطوعة من كتاب فرقان الحق لسورة الفرقان المزعومة»

لعل أبرز وآخر محاولة لمحاكاة القرآن في عصرنا الحديث كانت عام (١٩٩٩م) حين صدر كتاب اسمه (الفرقان الحق) من تأليف شخصين من الديانة المسيحية قررا تسمية أنفسهما باسمين مستعارين وهما «الصفي والمهدي» زاعمين بأن القرآن لايعتبر معجزة بلاغية وأنهما كسبا التحدي الموجود في القرآن حين قاما بتأليف هذا الكتاب الذي يتضمن (٧٧) سورة منها حسب تسميتهما سورة الفاتحة وأيضاً سورة التوحيد والمسيح والصلب والروح والإيمان والسلام.

لم يحرك هذا الكتاب ساكناً ولم يعتبر حتى كمحاولة معتبرة لمقارعة القرآن نظراً لما يحويه من أخطاء نحوية وبلاغية وأخطاء في توظيف الكلمات وفقاً لمعانيها اللغوية ومثال ذلك أن تسمية الكتاب برمتها خاطئة حيث إن معنى كلمة فرقان باللغة العربية هو الشيء الذي يفصل بين الحق والباطل لذلك يُلقب الخليفة عمر بن الخطاب بالفاروق، بمعنى أنه لايصح لغوياً أن نقول هذا فرقان حق وهذا فرقان باطل! علاوةً على ما احتواه الكتاب من محاولات يائسة لسرقة النصوص من القرآن الكريم مع القيام بتعديلات بسيطة في الجملة أوقعت المؤلفين بأخطاء نحوية وهم لايشعرون، لتبين مدى افتقار المؤلفين للقدرة على الإتيان بجمل وتراكيب وتشبيهات جديدة ولم يكن في جعبتهما إلا الإفلاس،.. ولايزال التحدي الإلهي قائماً لمن يشكك في مصدر القرآن الرباني

ويرى في نفسه الجرأة أن يأتي بمثله ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة البقرة آية ٢٣].

تحوم حول القرآن الكثير من التساؤلات الفلسفية، فتجد من يقول: لماذا نزل القرآن باللغة العربية دون سائر اللغات؟ ولماذا لايوجد بالقرآن أسماء لحيوانات لاتوجد في جزيرة العرب كالبطريق والكنغرو؟ وأيضاً نباتات كالأفوكادو والكيوي؟ تجد أيضاً من المشككين ومن لايؤمنون بنبوة محمد من ذهبوا إلى أبعد من ذلك في طرح تساؤلاتهم فيقولون: ما هو سر التشابه الكبير بين القرآن والكتب السماوية التي سبقته؟ في محاولة منهم للإيحاء بأن محمداً سرق من قصص التوراة والإنجيل! ولابد من إجابة هذه التساؤلات والرد عليها من وحي تلك الفلسفة بدءاً بسؤال تلو السؤال..

نعم اختار الله اللغة العربية لترجمة رسالته إلى البشر موضحاً ذلك في قوله: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [سورة الزمر آية ٢٨] وبما أن الغاية الربانية أن يكون القرآن واضحاً وغير ذي عوج فقد كان الأنسب أن يتفق ذلك مع لغة تعطي القرآن هذه البلاغة، وقد عرفت أكثر من ذلك عن لغتنا العربية من خلال قراءاتي ومشاهدتي لمختلف البرامج

اللغوية والدينية خصوصاً برنامج «العلم والإيمان»،[1] فبمقارنة اللغة العربية مع غيرها من اللغات السائدة في تلك الحقبة تجد أن اللغة العربية هي الأقدم بتاريخ يصل إلى عشرة آلاف سنة يليها بذلك العبرية بأربعة آلاف سنة كما أن اللغة العربية من اللغات التي تسمى (أصلاً) وليست من نتاج لغة سابقة لها مثل العبرية التي هي من توابع اللغة الآرامية القديمة، وتتفوق اللغة العربية على غيرها باحتوائها على (٢٨) حرفاً وأكثر من (١٦ ألف) جذر لغوي بينما تحتوي العبرية على (٢٢) حرفاً و(٢٥٠٠) جذر لغوي كذلك اللاتينية بـ (٢٦) حرفاً و(٧٠٠) جذر لغوي مما يوضح غنى اللغة العربية في جذورها كذلك غناها في مفرداتها ومشتقاتها ومرادفاتها ومعانيها، فهي اللغة الوحيدة في العالم والتي من الممكن أن تجد للكلمة الواحدة أكثر من معنى مثلاً كلمة السيف التي ترادفها كلمات أخرى تعطي نفس المعنى مثل الصارم والحسام والمهند والفيصل، وأيضاً كلمة أسد والتي ترادفها غضنفر، ضرغام، ليث، سبع، قسورة، ضيغم، هزبر وكذلك نقول مريض أو سقيم أو وقيذ أو عليل، ونقول مطر أو غيث أو صيّب أو هتان أو ودق أو ديمة أو رذاذ أو وابل، وأيضاً عطشان أو ظمآن، زوج أو بعل ويمكنك قول ولد أو فتى أو صبي أو غلام، فكل كلمة في اللغة العربية تقريباً تكاد تجد لها مالا يقل عن رديف واحد وذلك دلالة على غزارة وغنى المفردات والمعاني على

١- شاهد حلقة لماذا نزل القرآن باللغة العربية.

عكس غيرها من اللغات التي تعتبر فقيرة وتكاد تقتصر كل كلمة على معناها فقط، ومما تتفوق به اللغة العربية على سائر اللغات أيضاً إمكانية الاشتقاق بسهولة من الكلمة الواحدة فمثلاً تقول قصير، تقصير، قاصر، يقتصر، قصور وأيضاً حسن، حِسان، تحسين، إحسان، محسن، حسناء، أحاسن، وكذلك طرف، أطراف، طريف، طرفة، طرافة، متطرف، وأيضاً قولنا كرم، كرامة، تكريم، مكارم، كريم، مكرم، أيضاً مكعب، كعب، كعبة، تكعيب وقس على ذلك كثيراً مما تعجز عنه سائر اللغات التي لاتملك هذا الغنى في الاشتقاق والمفردات.

وكثرة هذه الخيارات ستنعكس بلا شك على فصاحة وبلاغة النص المكتوب بها، لذا لن تجد في العالم لغة أكفأ وأكمل من اللغة العربية لتمنحك هذه المزايا، بل إنه حتى الحرف الواحد في اللغة العربية له صوت ودلالات ورمزيات تؤدي بك إلى كلمات متشابهة في المعنى، فمثلاً كلمة «آخ» والتي يقولها الشخص دلالة على الندم أو الحسرة، تجد أن حرف الخاء هنا يقودك لكلمات لها نفس الدلالة كالخسارة والخذلان والخيبة والخزي والخيانة، وأيضاً كلمة «أُف» والتي تقال دلالة على التذمر تجد أن لها إيحاءات تقود إلى كلمات متشابهة في المعنى الذي تدل عليه مثل الرفث والفسوق والفجور والإفك والنفاق، وبالفعل استخدمها القرآن بما تعنيه من دلالات في النهي عن مخاطبة الوالدين بها إذ قال الله ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا

تَنْهَرْهُمَا ﴾ [سورة الإسراء آية ٢٣] وكذلك كلمة «أح» والتي تُقال للأطفال غالباً دلالة على السخونة فتجد أن لها إيحاءات لها نفس المعاني كالحرارة والحمّى والحريق والحميم والحامي، وأيضاً كلمة «صه» والتي يقولها الشخص بهدف إسكات الطرف الآخر تجد أن لها دلالات صوتية كثيرة مثل صوت، صدى، صمت، صفير، صيت، فالحق يقال بأن لغة مثل هذه هي اللغة الأكمل للقرآن الذي أراده الله أن يكون غير ذي عوج.

هذا كله علاوة على أن الله ابتعث نبيّاً من العرب والله لايبعث نبيّاً إلا بلسان قومه كما جاء في القرآن ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [سورة إبراهيم آية ٤] ولعل الحكمة من وراء ذلك هي أن القرآن جاء معجزة على العرب في أوج تفاخرهم بفصاحتهم ليعجزهم عن مقارعته فيكون بوابة لهم لتصديق رسالته، أما مايخص التساؤل عن اختيار الله لنبي من العرب فهذا شأنٌ إلهي وليس لتفضيل العرب على غيرهم كما يدعي بعض الملحدين أن الله لم يعدل بين الشعوب وخص العرب برسالته، فالله ابتعث نبيه من العرب فقط ولم يخصهم أو يفضلهم لدينه بل بعث منهم نبياً إلى الناس كافة وذكر في آياته أن لافرق بين الشعوب والقبائل إلا بالتقوى ولو كان الله اختص العرب بهدف تفضيلهم فلماذا وردت الكثير من الآيات في القرآن التي تدل على تفضيل الله لبني إسرائيل على العالمين؟ أليس في ذلك تناقض؟

أليس من الأولى حسب كلام الملحدين أن يفضّل محمداً نفسه ويمجّد العرب؟ وأيضاً لماذا جاءت في القرآن أوامر بالإيمان بجميع الأنبياء والرسل دون تفريق بين أحد من الرسل الذين يتخللهم الآراميون والعبرانيون؟ أليس الأجدر حسب كلام الملحدين أن يتم التفريق بين الأنبياء وتعظيم النبي العربي واسقاط قدسية من كانوا قبله؟ يجب أن يعلم الجميع أن الغاية الربانية هي في عبادة وطاعة الله أيّاً كانت اللغة أو اللسان، فهدف الرسالة التي بدأت بآدم وانتهت بمحمد واحد.

أما التساؤل الفلسفي الآخر الذي يقول: «إذا كانت آيات القرآن منزلة من عند الله الذي أحاط علمه بكل شيء حول العالم، فلماذا تجد آياته محصورة فيما يراه العرب في بيئتهم من حيوانات كالخيل والبغال والحمير والكلب والنمل والنحل والعنكبوت والحوت والفيل والهدهد وكذلك فيما يراه العرب حولهم من فواكه وخضروات كالتين والزيتون والعنب والرمان والعدس والبصل؟ أين ذهبت آلاف الحيوانات والخضروات والفواكه الموجودة في إفريقيا وفي أوروبا وفي قطبي الشمال والجنوب؟ أم أن محمداً ليس نبيّاً وكتب القرآن في ظل ما يراه ويسمعه من حوله؟»

حتى نجيب على هذا السؤال يجب أن نتعمق في تدبر القرآن

وتحديداً في قول الله ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [سورة يوسف آية ٢]، فلمّا كانت غاية إنزال القرآن هي أن يعقلة الناس كان الأجدر أن يخاطب القرآن عقول العرب فيما يعقلونه، وهذا لا يعني أن القرآن غير صالح للعالم ولكن سيُحدث ذكر أسماء عينية مثل الكنغرو والبطريق والدب شرخاً فهميًا لدى المتلقين العرب يحول دون أن يعقلوا الآية، ولعل مثال ذلك ماروي عن الحسن البصري من قوله: (كنا لا ندري ما معنى الأرائك، حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن، فأخبرنا: أن الاريكة عندهم: الحجلة فيها سرير).[1]

وكذلك ما روى في الأثر الصحيح عن أن كتّاب الوحي تعجبوا أمام النبي محمد من ثلاث كلمات نزلت عليهم وذلك لاعتقادهم أنها ربما تكون خطأ لأنها ليست على لسانهم وهذه الكلمات الثلاث هي (مُزْدَجَرٌ) و(كُبَّاراً) و(عُجَابٌ) حيث قالوا إننا لانطق بلساننا مزدجر ولا ننطق كبّاراً ولكن نقول كبيراً وأيضاً لانقول عُجاب ولكن نقول عجيب أو عجباً، فأمرهم الرسول أن يكتبوها كما نزلت إلى أن اتضح لاحقاً عندما بدأت الوفود والقبائل تتدفق على مكة لملاقاة الرسول عليه السلام أن هذه الكلمات نزلت على لسان إحدى القبائل العربية.

وهذا ما يدفعنا للتساؤل إن كانت مجرد كلمات عربية وبلهجات

---

١ – انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور ص ٤٢٧٥.

مختلفة أثارت هذه التساؤلات فكيف بأسماء حيوانات وخضروات لايعرفها العرب! فهل ستتحقق الغاية الإلهية في أن يعقل العرب هذا القرآن؟ لذلك ذكر الله سائر مخلوقاته التي لاتوجد في جزيرة العرب بصفة العموم تفادياً للبس، فذكر أن منها من يزحف على بطنه ومنها من يمشي على اثنتين أو أربع وذكر منها أيضاً ذوات الأنياب والمخالب والجوارح والسباع ومن ثم ذكر بصفة العموم قوله سبحانه ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل آية ٨] وفي ذلك إشارة لوجود مخلوقات أخرى غير التي في جزيرة العرب، بل يملك القرآن أسبقية بالإشارة لوجود حتى الفيروسات والميكروبات والحيوانات المجهرية والتي لاتُرى بالعين المجردة آنذاك إذ قال الله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الحاقه آية ٣٨، ٣٩].

ولكن لما كان من ضرورة التشريع تحريم لحم الخنزير فقد ذكر الله الخنزير باسمه رغم أنه حيوان لايعيش في جزيرة العرب مما أشكل على بعض المسلمين حينها، فكما ذكر ابن الوراق في كتابه (لماذا أنا لست مسلماً) عن تعجبه في كيفية تحريم النبي محمد لحيوان لايعيش في جزيرة العرب وبعضهم لم يرَه إلا لاحقاً في الحبشة ومصر؟، وهنا يكمن الإعجاز الذي يأبى إلا أن يثبت أن القرآن يخاطب العقول وأنه من لدن عزيز خبير.

يتساءلون بعد ذلك عن التشابه الكبير بين القرآن والكتب

السماوية التي تسبقه في محاولة منهم لإثبات أن النبي محمداً عليه السلام أخذ القصص الموجودة في القرآن من التوراة والإنجيل مفسرين ذلك بأنه كان عن طريق «ورقة بن نوفل» أو ربما الراهب «بحيرا»!، وأن «محمداً» لم يأتِ بشيء جديد يثبت نبوته وما فعله من سرقة لقصص وتشريعات الكتب السماوية يستطيع أي شخص غيره أن يفعله؟!

وطبعاً مثل هذه التساؤلات تثبت أنها نابعة من أهواء من يطرحها، فلو كان القرآن مختلفاً في قصصه لقالوا إن هذا دينٌ جديدٌ علينا ولايمكن أن نصدق ما ليس له علاقة بتاريخنا! وحين أتى القرآن مصدقاً لما قبله وعلى امتدادٍ له قالوا إن هذا دينٌ يسرق ما لدينا ولايمكن أن نصدق من يسلب تاريخنا! ولكن على الجميع أن يعرف أن النبي محمداً لم يدّعِ أنه أتى بدين جديد وإنما رسالته ليست إلا امتداداً للرسل من قبله وختاماً لها فكيف يكون مطالباً بأن يأتي بقصصٍ جديدة وهو في نفس الوقت مطالبٌ أن يثبت أنه مرسَلٌ من نفس رب بني إسرائيل؟ولكن كان لابد من أن (يصحح) القرآن بعض التحريفات والأخطاء البشرية الموجودة في الكتب المقدسة ومن هذا المنطلق وُجدت بعض الاختلافات في القصص، كأن يكون الذبيح في قصة سيدنا «إبراهيم» هو «إسماعيل» وليس «إسحاق» وكأن تستوي سفينة «نوح» على جبل الجودي وليس

جبل أرارات، وكذلك أن تكون «مريم» عذراء ولم يمسسها بشر مطلقاً وليست مخطوبة من يوسف النجار الذي فرت معه! وأن يكون ابنها «عيسى» عبد الله ورسوله وليس أحد الآلهة الثلاثة! أما ما أضافه القرآن من قصص فهي لإكمال الرسالة الربانية، فمثلاً لا يوجد في الكتب السماوية قصة هود وصالح وثمود وأصحاب الكهف والأيكة والفيل ولا يوجد أيضاً قصة طرد إبليس من الجنة لرفضه السجود لأدم! فقط القرآن هو من تطرق لهذه الحادثة التي تكتمل بفضلها الصورة لحقيقة العداوة بين الإنسان والشيطان!

ورغم مرور قرون على اكتمال الكتب السماوية إلا أنه قد ظهر لاحقاً قصة رفض سجود إبليس لآدم مكتوبة في إنجيل جديد اسمه The book of Adam، ولم تصادق عليه الكنائس وتم اعتباره من الأناجيل المزيفة أو ما يُعرف «بالأبوكريفا» ومع ذلك لم يتسنَّ لأحد من المسلمين أن يقول إن هذه الإضافة المفاجئة على الإنجيل مسروقة من القرآن لأننا جميعاً نؤمن بوحدانية المصدر! ولا عجب بأن يكون هناك تشابه كبير يثبت رغم التحريف بأن الأديان السابقة من الله.

وبالعودة لأحد أبرز الاختلافات التي وردت بين القرآن والكتب السماوية هو ما ورد في شخصية «هامان» حيث جاء في القرآن عن كونه وزيراً لفرعون بينما في الكتب السماوية كان «هامان» وزيراً لملك بابل «أحشوبروش»، ومما لاشك فيه أن هذا اختلاف

كبير حول شخصية «هامان» نظراً لاختلاف زمان ومكان وجوده بين القرآن والكتب السماوية مما فسره أعداء القرآن على أنه خطأ في الاقتباس من النبي «محمد» وذلك في وضعه لشخصية «هامان» بمكان آخر وفي عهد آخر ليثبت بذلك أن نبوته ليست إلا محاولات (بشرية) في نسخ القصص الموجودة لدى الكتب السابقة!

طبعاً المنطق يقول بأنه ليس هناك أي مانع من أن توجد شخصية مستقلة اسمها «هامان» في عهد الملك «أحشوبروش» في بابل وأخرى في عهد «فرعون» في مصر، فلدى المسيحيين مثال على ذلك لأنهم يؤمنون بالنبي «يوسف» ويؤمنون بوجود شخصية اسمها «يوسف» في عهد «مريم العذراء» وهو الذي تزوجها، ولكني مع ذلك سأستشهد بما ذكره الدكتور الفرنسي «موريس بوكاي» في كتابه Moise et Pharaon حيث كتب: «لقد جاء ذكر «هامان» في القرآن كرئيس المعماريين والبنّائين. ولكن الكتاب المقدس لا يذكر أي شيء عن وجود «هامان» في عهد فرعون، وقد قمتُ بكتابة كلمة «هامان» باللغة الهيروغلوفية (لغة مصر القديمة)، وعرضتها على أحد المختصّين في تاريخ مصر القديمة، ولكي لا أدعه تحت أي تأثير لم أذكر له أنها وردت في القرآن، بل قلت له إنها وردت في وثيقة عربية قديمة يرجع تاريخها إلى القرن السابع الميلادي. فقال لي المختصّ: «يستحيل أن ترِد هذه الكلمة في أي وثيقة عربية في القرن السابع؛

لأن رموز الكتابة باللغة الهيروغلوفية لم تكن قد حلّت آنذاك»،
ولكي أتحقق من هذا الأمر فقد أوصاني بمراجعة «قاموس أسماء
الأشخاص في الإمبراطورية الجديدة» لمؤلفه «أللامند رانك». نظرتُ
إلى القاموس فوجدت أن هذا الاسم موجود هناك ومكتوب باللغة
الهيروغلوفية وباللغة الألمانية كذلك. كما كانت هناك ترجمة لمعنى هذا
الاسم وهو «رئيس عمّال مقالع الحجر».

وكان هذا الاسم أو اللقب يطلق آنذاك على الرئيس الذي
يتولى إدارة المشاريع الإنشائية الكبيرة. استنسخت تلك الصفحة
من ذلك القاموس وذهبت إلى المختص الذي أوصاني بقراءته، ثم
فتحتُ ترجمة القرآن بالألمانية وأريته اسم «هامان» فيه، فاندهش
ولم يستطع أن يقول شيئًا، لو جاء ذكر اسم «هامان فرعون» في
أي كتاب قبل القرآن، أو لو جاء ذكره في الكتاب المقدس لكان
المعترضون على حق، ولكن لم يرد هذا الاسم حتى نزول القرآن في
أي نصّ، بل ورد فقط على الأحجار الأثرية لمصر القديمة وبالخط
الهيروغلوفي، إنّ ورود هذا الاسم في القرآن بهذا الشكل المذهل لا
يمكن تفسيره إلا بأنه معجزة، وليس ثمة أي تعليل آخر.. أجل،
إن القرآن أعظم معجزة..»

وما ذكره الدكتور «موريس بوكاي» في كتابه عن البحث الذي
توصل فيه أن اسم «هامان» يعني رئيس العمال في اللغة الهيروغلوفية

كاسم «فرعون» الذي يعني الملك أيضاً! وُجد أن ذلك يتناسب مع الأوامر التي كان هامان (المقاول) يتلقاها من فرعون (الملك) في نصوص القرآن بأن يبني صروحاً وبروجاً لفرعون ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [سورة القصص آية ٣٨] وكذلك قول الله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ [سورة غافر آية ٣٦].

فلو كان النبي «محمد عليه السلام» قد سرق من القصص المذكورة في الكتب السابقة كما يزعمون، فمن أين جاءت هذه الاختلافات في القصص وهذه الإضافات؟ لماذا لم يكن التطابق بين القرآن والتوراة أو الإنجيل بنسبة (١٠٠٪) طالما أن «محمداً» يملك خيار النسخ منها؟ أم أن ما ذكره القرآن هو لتصحيح كلام الله الذي تم التلاعب به وتحريفه في الكتب السابقة من أجل مصالح سياسية ودنيوية؟

سأروي لكم قصة حدثت للشيخ الهندي «أحمد ديدات» رحمه الله في إحدى مناظراته مع القس المسيحي العربي الأصل «أنيس شروش» حيث تحدى أنيس الشيخ أحمد قائلاً له: «أنا أعلم منك بلغتي العربية الجميلة التي نزل بها القرآن وأنا أقول بأن (٧٥٪) من الموجود في القرآن هو مسروق حرفيّاً من الإنجيل وأنا أتحدى من يثبت عكس ذلك».. كان رد الشيخ «أحمد ديدات» مفاجئاً لأنيس حيث رحّب

بقبول التحدي وقام بإعطاء أنيس نسخة من القرآن وأخرى من الإنجيل وقال له: «أمامك الآن (٧٥) دقيقة لتريني أين التشابه الحرفي والسرقة الواضحة بين القرآن والإنجيل»، الجدير بالذكر أن «أحمد ديدات» كسب التحدي حيث عجز القس «أنيس شروش» عن إيجاد تشابه حرفي واحد خلال (٧٥) دقيقة، ثم تابع الشيخ «ديدات» حديثه أمام الناس قائلاً:

«على جميع من يتحدى أن يكون أهلاً لذلك لا أن يكذب ويفتري على القرآن، وسأخبركم حتى يعلم الجميع ماذا تعني السرقة الحرفية التي في كتبكم» ثم أحضر الشيخ أحمد كتاباً من تأليف القس «وليام مويير» وقرأ على الناس ما قاله القس «وليام» في كتابه إذ كتب: «إنه لشيء غريب أن يتم التحدث عن كتب اليهود والنصارى في القرآن الكريم بأسمى المعاني، وما لاحظته خلال قراءتي للقرآن أن عبارة واحدة فقط تم اقتباسها من الإنجيل وهي الآية التي وردت في إنجيل متّى الإصحاح رقم (٥:٥) حيث قال المسيح: طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض»..

بعد ذلك علّق الشيخ «أحمد ديدات» على الكلام الذي قرأه قائلاً: «لاحظوا أن القس وليام موير يقول في كتابه إنه لم يجد إلا جملة واحدة فقط اقتبسها النبي «محمد» حرفيّاً من الإنجيل، وليس (٧٥٪) كما يزعم السيد أنيس، ورغم ذلك نحن نعرف أن هذا غير

صحيح فالقرآن ليس فيه جملة تقول حرفيّاً طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض، ولكن سنقوم بتقريبها إلى أقرب قول وهو قول الله في سورة الأنبياء الآية (١٠٥) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء آية ١٠٥]». وأضاف أحمد ديدات قوله: «إن هذه الآية التي وردت في الإنجيل على لسان المسيح والتي تقول «طوبي للودعاء لأنهم يرثون الأرض»، تجدونها نفسها تماماً مذكورة قبل ولادة المسيح وذلك في مزامير داود الإصحاح (٣٧) الآية (١١)». ومزامير داود تُسمى أيضاً «بالزبور» وهو أحد فصول التوراة، ثم قال ديدات: «هذا ما يمكن أن نسميه بالسرقة الحرفية لديكم، فحين قال المسيح في إنجيلكم: طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض، لم يذكر أن العبارة موجودة من قبل في مزامير داود ونسبها لنفسه، بينما أشار القرآن للمصدر في آية مشابهة لها وليست نفسها تماماً إذ قال الله ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ فأخبروني الآن من الذي اقتبس دون ذكر المصدر وقام بالسرقة من الكتب السابقة، ربكم يسوع أم نبينا محمد؟!».. بعد ذلك وقف الناس للتصفيق على براعة الشيخ «أحمد ديدات» في الرد على هذه الشبهة التي تحوم حول القرآن الكريم من أعدائه...وبلا شك أن الشيخ «ديدات» يحب «عيسى بن مريم» ويؤمن به ولكنه يخاطب عقول المسيحيين بما حرفوا في كتابهم.

***

نؤمن كمسلمين بأن القرآن صالح لكل زمان ومكان وبأنه موجه إلى الناس كافة، لذا فهو الكتاب الوحيد الذي ظل صامداً أمام تطورات الحياة على عكس غيره من الكتب التي اضطر أعوانها إلى الاستعانة بقوانين وضعية لتقلص حجم الفجوة بين متطلبات الماضي والحاضر.

ومن منطلق إيماننا بأن القرآن صالح لكل زمان ومكان فرض ذلك علينا قبول التجديد في تأويله وأن لاتظل جميع تفسيراته حبيسة لحقبة معينة كان العلم فيها متواضعاً جدًّا خصوصاً وأن تطور العلم الحديث ما يزال يكشف الكثير من نبوءات وإعجازات وأسرار القرآن الكريم التي أخبر بها محمد قبل أكثر من (١٤٠٠ عام) ليظهر بذلك مصطلح الإعجاز العلمي في القرآن ويتم اعتماده كأحد أبرز الأساليب التي تثبت بأن القرآن ليس كتاباً بشريّاً وإنما جميع ما جاء فيه من عند الله.

قد يطرح أحدنا تساؤلات منطقية فيما يخص الإعجازات العلمية في القرآن فيقول مثلاً: إن القرآن الكريم كتاب هداية وليس كتاب علم؟ وإذا افترضنا صحة الإعجاز العلمي فلماذا كان الله يخاطب العرب بأمور لن يفقهوها إلا بعد آلاف السنين؟ وهل اقتران إحدى آيات القرآن بتفسير علمي سيطعن في القرآن فيما لو تم الطعن في النظرية العلمية؟

مما لاشك فيه أن القرآن كتاب هداية وليس كتاب علم ولكن

هذا لايتعارض مع الإعجاز العلمي الموجود فيه وذلك كون الإعجاز إحدى الوسائل المؤدية إلى الهداية، وينعكس ذلك جلياً على من دخلوا في دين الإسلام من علماء الغرب ومنهم «جورنجر وبرسود وتاجاسون»، وأيضاً من قام بتأليف كتب تؤكد صدق تطابق القرآن مع أحدث ما توصل إليه العلم كالدكتور «موريس بوكاي» مؤلف كتاب (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) ولكن الإشكالية هي في من تخصصوا في مجال الإعجاز العلمي دون التقيّد بضوابطه فبدؤوا بطرح المبالغات في تأويل كل آية علمياً بشكل أفقد الإعجاز مصداقيته وحوّل القرآن إلى كتاب رياضيات.

أما فيما يخص السؤال الذي يقول: لماذا كان الله يخاطب العرب بأمور لن يتم اكتشافها إلا بعد آلاف السنين؟، فهذا لايعني عدم صحة الإعجاز العلمي في القرآن، من المؤكد أن القرآن نزل على العرب ليعقلوا آياته إلا أنه خاطبهم أيضاً عن تنبؤات ووعود مستقبلية سيكون لها وقتها ومستقرها الذي تتناسب معه كقول الله: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأنعام آية ٦٧] وأيضاً: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [سورة فصلت آية ٥٣]، أي لا تتعارض الاكتشافات العلمية التي اكتشفناها بعصرنا مع ما تم ذكره في القرآن قبل أكثر من (١٤) قرناً، لأن ذلك مما يؤكد صلاحية القرآن لكل زمان ومكان ويصادق على ما وعده الله مستقبلاً في آياته.

فالقرآن مثلاً سبق علم الأجنة بمئات السنين وذلك في ذكر مراحل تطورات الجنين بشكل وترتيب دقيق وبدون أخطاء علمية كما في غيره من الكتب السماوية وكتب الفلسفة الفكرية، ففي الإنجيل جاء في «سفر أيوب» الإصحاح الثامن «يداك كوّنتني وصنعتني كلي جميعاً. أفتبتلعني، اذكر أنك جبلتني كالطين. أفتعيدني إلى التراب، ألم تصبّني كاللبن وخثّرتني كالجبن، كسوتني جلداً ولحماً فنسجتني بعظام وعصب». ومن يلاحظ سيدرك بأن العلم نفى أن الجلد واللحم يسبقان العظام والأعصاب في مراحل تكّون الجنين!!

وكذلك ما ورد في كتب الطب القديمة والمنسوبة لفلاسفة الإغريق مثل «أبوقراط وسقراط» من أن دم حيض المرأة له دور في تكوين الجنين، على عكس القرآن الذي جاء بما يتوافق مع العلم إذ قال الله في كتابه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة المؤمنون آية ١٢-١٤] وهذا ما أقر به العلم الحديث وما أشاد به أستاذ علم التشريح في جامعة تورنتو بكندا البرفسور (كيث مور) حيث كان من المشاركين أيضاً في تأليف كتاب Human Development الذي يعتمد على القرآن كالمرجع الإلهي الوحيد الذي أثبت توافقه مع العلم فيما يخص مراحل تكوين الجنين.

والإعجاز العلمي يكون غالباً وفق ضوابط وشروط تتماشى مع النظريات والحقائق التي أثبتها العلم الحديث بشكل لايحتمل الطعن فيها ولو حصل أن تم الطعن في إحدى النظريات العلمية في مختلف المجالات، فإن الخطأ في التفسير لاينسحب على النص المفسّر.

***

يعتبر القرآن أكثر كتاب قديم أشار لعلوم الفلك بشكل يتطابق مع ما توصل إليه العلم في عصرنا، فآخر ما توصل إليه العلم الحديث عن نشأة الكون هو ما يسمى بنظرية الانفجار العظيم أو big bang والتي تنص على أن الكون كان كتلة واحدة قبل أن ينفجر من تأثير الحرارة الشديدة وهذا أقرب ما يكون إلى قول الله في القرآن ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [سورة الأنبياء آيه ٣٠] ثم أشار القرآن بعد ذلك إلى أهمية الماء كعنصر يدل على الحياة وهذا ما تبحث عنه وكالات الفضاء في المريخ والمشتري حيث سيدل وجود الماء في الكواكب الأخرى على وجود الحياة فيها وبذلك جاء في القرآن بعد آية نشأة الكون قول الله ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [سورة الأنبياء آيه ٣٠].

ثم تؤكد بعد ذلك الأبحاث والدراسات الفلكية التي بدأت منذ عام (١٩٢٩م) أن حجم الكون في تمدد وتوسع مستمر وذلك يتوافق

مع ما جاء في القرآن من قول الله ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [سورة الذاريات ٤٧] وبعد ذلك يخبرنا القرآن عن ديناميكية الأجرام السماوية في قول الله ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [سورة يس ٤٠].

ويشير القرآن أيضاً إلى الثقوب السوداء التي اكتشفت في الفضاء عام (١٩٧١م) فيقول الله عنها ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة التكوير آيه ١٥، ١٦] ثم يخبرنا القرآن عن دوران الأرض فيقول الله ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾ [سورة النمل ٨٨] ثم يخبرنا القرآن عن شكل الأرض الكروي والدور الذي يلعبه دوران الأرض حول نفسها في تعاقب الليل والنهار فيقول الله ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ ﴾ [سورة الزمر آيه ٥].

ثم يخبرنا القرآن عن دور السماء في إرجاع الماء المتبخر إلى الأرض على شكل زخات من المطر وكذلك إرجاع طبقة الأوزون في الغلاف الجوي للإشعاعات الضارة التي تصدرها الشمس كالأشعة فوق البنفسجية وذلك يتجلى في قول الله ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴾ [سورة الطارق آيه ١١] ثم أشار القرآن إلى ما أثبته العلم من عدم تداخل المياه المالحة في المحيطات مع المياه العذبة لاختلاف كثافتيهما حيث قال الله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴾ [سورة الفرقان آيه ٥٣].

ثم يخبرنا القرآن عن أن الجبال تشبه أوتاد الخيام المغروسة في الأرض، حيث إن لها جزءاً في أسفل الأرض وليس فقط ما نراه في الأعلى إذ قال الله ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [سورة النبأ ٧].

ثم ينبئنا الله في القرآن عن أن منطقة «ناي نيفا» التي حدثت فيها معركة الفرس والروم عام (٦١٩م) هي أخفض منطقة على سطح الأرض حيث تنخفض عن سطح البحر بـ(٣٩٥م) وذلك في قول الله ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الروم آيه ٢،٣]، وغير ذلك الكثير من الإعجازات العلمية في مختلف جوانب الحياة.

هناك من يقول إن الإعجاز العلمي في القرآن ليس إلا ضرباً من ضروب الوهم وما هو إلا كذبة يسوق لها من يشعر أن في دينه نقصاً فيحتاج إلى أن يعوض ذلك النقص بأوهام تمنحه الشعور بالكمال، وأنا إلى الآن لا أعرف ما هو الرد المناسب على هؤلاء إلا بأن أسألهم وأقول: أين الوهم في أن يكتشف العلم أن مركز الكذب للإنسان يقع في ناصيته بالفص الأمامي من الدماغ وهو الذي قال عنه الله ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [سورة العلق آيه ١٦]؟

وأين الوهم في أن يكتشف العلم أن الإحساس بالألم يتجسد في النهايات العصبية الموجودة في جلد الإنسان والذي قال الله عنـه ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [سورة النساء آيه ٥٦] وأين الوهم في أن يكتشف العلم أن المرأة ليس

لها أي دور في تحديد جنس المولود لأنها تحمل الكروموسومات XX بينما الرجل يحمل X، Y والذي قال الله عنه ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [سورة البقرة آيه ٢٢٣] في إشارة إلى أنك لن تحرث من المرأة إلا البذرة التي تزرعها فيها؟ وأين الوهم في أن يدلنا القرآن من بين الكتب السماوية على بقاء أجساد الفراعنة أو ما يُعرف بالمومياوات وتحديداً مومياء رمسيس الثاني والتي تم اكتشافها في القرن الثامن عشر وهو ما أشار الله إليه في قوله ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ ﴾؟ [يونس آيه ٩٢] .. أعتقد أن الوهم يكمن في عقول من يعتقدون أن الإعجاز الموجود في القرآن لايعدو كونه وهماً.

وهؤلاء أخف وطأة من الشق الآخر من أصحاب الديانات الأخرى والذين لايؤمنون بالقرآن كله ويقولون بأن القرآن يحتوي على الكثير من الأخطاء العلمية! أتذكر أني وقفت على مقطع فيديو على الإنترنيت ظهر به رجل مسيحي يتحدث عن أن القرآن ليس إلا كتاباً من تأليف البشر وما يدل على ذلك هو وجود أربعة أخطاء علمية فيه، ذكر منها ما جاء في سورة الكهف عن مغيب الشمس ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ ﴾ [سورة الكهف آيه ٨٦] وقال إن كاتب القرآن لابد أنه يجهل بعلم الفلك حيث يذكر لنا هنا أن الشمس تغرب في عين مائية حامية وهذا بلاشك خطأ علمي يثبت بشرية القرآن!!

ثم أردف بآية أخرى أراد أن يؤكد بها ما يقوله عن جهل كاتب القرآن بعلم الفلك ويقصد بذلك «محمداً عليه السلام» حيث قال إنه يظن أن الأرض مسطحة وذلك في قوله ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [سورة الغاشية آيه ٢٠] بل وإن «محمداً» يظن أن السماء والأرض بنفس الحجم وأن عرض السماء يوازي عرض الأرض وذلك في قوله ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة الحديد آيه ٢١] وما أثبته العلم من أن الأرض ليست إلا نقطة أمام السماء فكيف يُقاس عرض الأرض نسبةً إلى عرض السماء؟ ثم يتساءل بعد ذلك فيقول: كيف يكون هذا كلام الله الذي خلق الكون وهو يحوي هذه الأخطاء الفلكية؟ ثم يتابع قوله بذكر الخطأ الرابع عن الماء الدافق تعقيباً على ما جاء في القرآن في سورة الطارق عن مكان خروج الماء الدافق ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الطارق آيه ٦، ٧] فيقول: إن العلم الحديث أثبت أن الماء الدافق لا يخرج من صلب الرجل ولا من صدر وأضلاع المرأة فهل يوجد أكبر من هذا الخطأ ليدل على أن القرآن من تأليف البشر؟

وللرد على هذه الشبهات يجب أن ندرك أولاً أن هناك احتمالين في دراسة حدوث أي خطأ، الاحتمال الأول أن يكون موجوداً بالفعل أما الاحتمال الآخر فهو أني قد أكون أنا من صنعت الخطأ في رأسي وبفضل الإيحاء الذاتي آمنت فعلاً بوجود هذا الخطأ إما

لجهل مني أو لقصور في نظري وضعف مصدر المعلومة، وهذا ما حدث بالفعل فيما يظنه أتباع الديانات الأخرى من المسيحيين واليهود أخطاء قرآنية يباركها لهم الملحدون، لذا سأتبنى الرد على هذه الأخطاء الأربعة واحداً تلو الآخر نظراً لأنها أكثر ما يجمع عليه من لا يؤمن بالقرآن.

أولاً: سأبدأ بما يشاع عنه أنه خطأ علمي في سورة الكهف عن مكان غياب الشمس في قول الله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [سورة الكهف آيه ٨٦] وحتى نوضح المعنى بهذه الآية يجب علينا التفريق أثناء الاستدلال من القرآن بين الآيات التي يذكرها الله نقلاً عن أشخاص وبين الآيات التي يذكرها الله بنفسه.

تجدون اليوم الكثير ممن يستشهدون بـ ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [سورة يوسف آيه ٢٨] قدحاً في النساء دون الإشارة إلى أن الله ذكر الآية نقلاً عن لسان عزيز مصر، وقصة النبي موسى مع فتاه ستوضح ما أعنيه، فقد ذكر الله في القرآن في قصة فتى موسى إذ نسيا حوتهما على شكلين، حيث قال في المرة الأولى عن الحوت ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [سورة الكهف ٦١] ثم قال في المرة الثانية ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ [سورة الكهف ٦٣]، حين ذكر الله ﴿سَرَبًا﴾ كانت من عنده سبحانه لأنه يعلم كيف تسرب الحوت إلى الماء من جديد، بينما ﴿عَجَبًا ﴾ كانت نقلاً عن لسان فتى موسى لأنه بشر وبالتأكيد

أنه تعجب من ذلك، فالتفريق هنا بين الرؤية الربانية وبين النقل الرباني عن رؤية أشخاص مهم جدّاً وأهميته تكمن في أننا قد نسيء إلى الذات الإلهية لو لم نأخذ التفريق بعين الاعتبار وذلك بأننا قد نجعل الله هو من تعجب من عودة الحوت إلى الماء وهذا فيه انتقاص لله سبحانه وهو عالم الغيب فكيف نجعله يتعجب؟ وهذا ما سيوضح لنا ما فهمه من يقولون بأن القرآن فيه خطأ فلكي عن مغيب الشمس في قصة «ذي القرنين» لأنهم بكل بساطة لم يفرّقوا بين الرؤية الربانية وبين ما نقله الله عن رؤية أشخاص، حيث ذكر الله في قصة ذي القرنين قوله ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ولاحظ قوله ﴿وَجَدَهَا﴾ بمعنى أن الله لم يقدم هنا أي حقيقة علمية من رؤيته الربانية وإنما ما ذكره هو الكيفية التي وجد بها ذو القرنين الشمس بمرأى عينيه، حيث اشتهر عند العرب قديماً وغيرهم من الشعوب عن وصفهم لغروب الشمس من منظورهم البشري فتارة يقولون غربت الشمس خلف الجبل وتارة في وسط البحر وخلف الأشجار تارة أخرى.

ولكن دعونا نرَ في القرآن الحقائق العلمية التي قدمها الله من منظوره الرباني عن غروب الشمس والتي لانعلم لماذا غض هؤلاء النظر عنها، إذ يقول الله في سورة الرحمن ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [سورة الرحمن آيه ١٧] وهنا يتحدث الله من منظوره

الرباني معلناً عن إعجازٍ علمي لغروب الشمس حيث إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي ذكر أن للشمس مغربين بل وذكر في آية أخرى أن لها (مغارب) في قوله ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ [سورة المعارج آيه ٤٠] وهذه الحقيقة العلمية لم يتوصل لها أحد إلا بعد القرآن، والمقصود بالمشرقين والمغربين هو ما أكده علم الفلك من أن الشمس دائمة الشروق وأن دوران الأرض حول نفسها هو المسؤول عن عملية الشروق والغروب، حيث إن غروب الشمس لدينا يعني شروقها في نصف الأرض الآخر وغروبها هناك يعني شروقها لدينا وبالتالي هي دائمة الشروق على الأرض ودائمة الغروب في مشرقين ومغربين مختلفين، وأما المشارق والمغارب فقد ذكر الله ما أثبته العلم عن اختلاف مواقع شروق الشمس وغروبها خلال العام الواحد وذلك نتيجة لدوران الأرض حول الشمس فيكون لكل فصل من فصول السنة الأربعة درجة ميلان لشروق الشمس فيه، وهنا يتجلى الفرق الكبير بين حقيقة غروب الشمس وشروقها من منظور الله العظيم وبين ما ذكره الله من منظور ومعتقد «ذي القرنين».. ولكنها الانتقائية لمن أوهموا أنفسهم بوجود مثل هذا الخطأ.

ثانياً: نتناول الآن الآية التي يزعم هؤلاء أنها خطأ قرآني في تحديد شكل الأرض على أنها مسطحة بينما أثبت العلم أن الأرض

كروية الشكل وذلك في قول الله ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [سورة الغاشية آيه ٢٠]، الآية هنا تشير إلى أن للأرض سطحاً نعيش عليه كما كان يُعرف قديماً أن للقمر سطحاً ولم يكن ذلك يتعارض مع كرويته التي يراها الكل، ولكن هل هذه الآية قدمت حقيقة علمية على أن شكل الأرض مسطح؟ طبعاً لا.. لأن القرآن تحدث عن منظورنا نحن البشر حين خاطبنا في بداية الآية بقوله ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ [سورة الغاشية آيه ١٧] ومما لاشك فيه أننا نرى الأرض مسطحة مرأى العين، فلو كان المقصود شكل الأرض فكيف يخاطبنا الله بقوله ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ ثم يشير إلى كروية الأرض وهو يعلم أننا لن نرى ذلك بأعيننا؟ لذلك فهذه الآية تتحدث عما نراه بأعيننا من سطحية الأرض، وليس عن شكلها الخارجي الذي لانراه، ولكن دعونا نبحث.. هل أشار القرآن لكروية الأرض؟ نعم وهو ما ذكرته سابقاً فيما ورد في سورة الزمر من قول الله ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [سورة الزمر آيه ٥] فاختيار لفظ التكوير هنا لايمكن أن يكون عبثاً، فتعاقب الليل والنهار ماكان ليكون لولا دوران الكرة الأرضية حول نفسها وتكويرها لليل على النهار والنهار على الليل، وهذا يدعنا نتساءل: أين من يلتقط مثل هذه المفردات إن كان يبحث فعلاً عن الحقيقة..؟

ثالثاً: ويكمن الخطأ الثالث في زعمهم أن الآية التي يقول الله فيها ﴿ كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة الحديد آيه ٢١] تدل على أن

القرآن من تأليف «محمد» لأن مقارنته واعتقاده أن عرض السماء يوازي عرض الأرض ينم عن جهله بالكون لأن حجم الأرض عبارة عن لاشيء أمام حجم السماء التي تضم الأجرام والمجرات وغيرها.. بالتأكيد سيكون هذا الكلام صحيحاً إن كان هذا هو المقصود بذكره في القرآن.. ولكن هل هذا هو غرض القرآن من ذكر هذه الآية؟ لو كانت غاية القرآن الموازنة بين عرض السماء والأرض لأنه يعتقد أنهما بنفس الحجم فلماذا ذكر الله في آية أخرى قوله ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [سورة آل عمران آيه ١٣٣]؟ فكيف يقارن حسب مفهوم هؤلاء عرض سماوات (جمع) بأرض واحدة (مفرد)؟ إذاً الغاية من الآية ليست مقارنة طول أو عرض السماء بالأرض فالقرآن أصلاً يملك سابقة علمية في الإشارة إلى أن حجم السماء غير ثابت وفي توسع مستمر ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [سورة الذاريات آيه ٤٧] فكيف يقارنها بالأرض الثابتة الحجم؟ وإنما التفسير بكل بساطة كما أشار له القرطبي في قوله: «أن الله أراد بذلك أوسع شيء رأيتموه أيها الناس».. حيث كانت العرب قديماً تستخدم نفس المصطلح كناية عن عظمة الشيء.

رابعاً: يقولون عن الخطأ الرابع هو في قول الله عن الإنسان ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الطارق آيه ٦، ٧]، عند الوهلة الأولى من قراءة هذه الآية يتبادر إلى ذهن قارئها أنها تتحدث وتحدد مكان خروج الماء الدافق أثناء الجماع لخلق

إنسان جديد، وهذا هو الخطأ الفهمي الذي وقع فيه هؤلاء، ولكن بعد التأمل والتدبر بهذه الآية ستكتشف غير ذلك، فمن يلاحظ سيجد أن الآية تتحدث عن كيفية تكوين وخلق الماء الدافق نفسه.. فالله سبحانه لم يبت في مكان خروجه ولم يقل يخرج (من) الصلب والترائب، وكلمة (من بين) هنا لها دلالة لغوية أخرى تقودنا إلى إعجاز قرآني يوضح ما وراء هذه البينية، فإذا سلمنا أن المقصود بالصلب هو العمود الفقري والترائب هي الأضلاع فذلك يعني أن للآية الكريمة أبعاداً أكبر بكثير من فهمها السطحي ويحتاج تأويلها لطرق باب العلوم لطلب شرح علمي يوضح لنا العلاقة والرابط بين الصلب والترائب في عملية تكوين الماء الدافق، حيث يخبرنا آخر ما توصل له العلم عن تكوّن الغدد التناسلية في كل من الرجل والمرأة (الخصيتين والمبايض) فيما يعرف باسم الحدبة التناسلية والتي تقع بين صلب الجنين (العمود الفقري) وترائبه (ضلوعه) خلال نشأتهما الجنينية، ثم تهاجر الخصية بالتدريج حتى تصل إلى كيس الصفن في أواخر الشهر السابع من عمر الجنين، وكذلك ينزل المبيضان إلى حوض المرأة في نفس الفترة تقريباً،[1] والآن.. على جميع أصحاب الشبهة أن يثبتوا عكس هذه الحقيقة العلمية التي تتوافق مع علوم الأجنّة والتشريح قبل أن يأتوا متغطرسين ليقولوا إن في القرآن خطأ..! والخطأ الوحيد في عقولهم..

---

١ - انظر Obstetrics and Gynecology by Tim Richard.

وبما أن هذه أبرز الشبهات التي يظنها أصحاب الديانات الأخرى أخطاءً فقد قررت أن أتحدث عنها وأرد عليهم بما لدي من علم ومعرفة لأبرهن لهم بأنه ما من خطأ واحد في القرآن وإنما يخيّل إليهم ذلك، ولكني الآن أتساءل وأقول لنفسي.. هل اطلع أصحاب هذه التهمة من الديانة المسيحية على إنجيلهم المقدس قبل أن يفتشوا عن الأخطاء العلمية في القرآن؟ فالمثل العربي يقول «إذا كان بيتك من زجاج فلا تقذف الناس بالحجارة».. ومع ذلك فلن أجزم بأن ما سأقوله الآن من الإنجيل أخطاء علمية وسأحترم مشاعر المسيحيين - رغم اعتراف الدكتور المسيحي «وليام كامبل» بأنها أخطاء - إلا أني سأطلب تبريراً وجواباً على ذلك لعله يأتيني يوماً من يؤمن بالإنجيل ليوضح لي تساؤلاتي، ولن أبحر في التساؤل حول الإنجيل رغم كثرة التساؤلات المخالفة للعلم الحديث، ولكني فقط سأضع نصّاً عن خلق الكون والمذكور في سفر التكوين وسأطرح بعد ذلك الأسئلة التي حيرتني.

يقول الإنجيل (سفر التكوين الإصحاح الأول): «١في الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. ٢وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. ٣وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ. ٤وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. ٥وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلاً،

وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا. ٦وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلاً بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ». ٧فَعَمِلَ اللهُ الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ. ٨وَدَعَا اللهُ الْجَلَدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا.

٩وَقَالَ اللهُ: «لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلْتَظْهَرِ الْيَابِسَةُ». وَكَانَ كَذلِكَ. ١٠وَدَعَا اللهُ الْيَابِسَةَ أَرْضًا، وَمُجْتَمَعَ الْمِيَاهِ دَعَاهُ بِحَارًا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. ١١وَقَالَ اللهُ: «لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجِنْسِهِ، بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ. ١٢فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا كَجِنْسِهِ، وَشَجَرًا يَعْمَلُ ثَمَرًا بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. ١٣وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَالِثًا.

١٤وَقَالَ اللهُ: «لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينٍ. ١٥وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ. ١٦فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ. ١٧وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ، ١٨وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَلِتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. ١٩وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا رَابِعًا».

تتحدث الآيات المذكورة أعلاه عن بداية خلق الكون في ستة أيام وأنا سأعلق عليها بعدة تساؤلات:

أولاً: تذكر الآية رقم (١) أن الله خلق الضوء في اليوم الأول وفصل الله بين النور والظلمة ثم يُذكر بعد ذلك في الآية رقم (١٦) أن الله خلق الشمس والتي هي مصدر الضوء في اليوم الرابع فكيف يكون هنالك ضوء قبل مصدره؟

ثانياً: تذكر الآية رقم (٩) أن الله خلق الأرض في اليوم الثالث، فكيف يكون هنالك ليل ونهار في اليوم الأول قبل وجود الأرض خصوصاً وأن حدوث الليل والنهار يكون بسبب دوران الأرض حول نفسها

ثالثاً: تذكر الآية رقم (١١) أن الله خلق في الأرض العشب والنباتات والأشجار المثمرة في اليوم الثالث بينما وحسب الآية رقم (١٦) أن الله خلق الشمس في اليوم الرابع فكيف يكون هناك نبات وخضار قبل وجود الشمس وهي المسؤولة بشكل رئيسي عن عملية البناء الضوئي؟

رابعاً: تذكر الآية رقم (١٦) أن الله خلق الشمس (النور الأكبر) والقمر (النور الأصغر) لينير كلٌّ منهما الأرض بنوره الخاص فيه حسب الترجمة العبرية، وهذا يتعارض مع العلم الذي أثبت أن ضوء القمر ليس إلا انعكاساً لنور الشمس!

الأخطاء العلمية في الإنجيل تطول وهذا ما يثبت التحريفات البشرية التي دخلت عليه، فنحن كمسلمين نؤمن بالإنجيل الذي نزل على «عيسى بن مريم» ونحترمه ولكننا نؤمن بنفس الوقت أنه تعرض للتحريف والتدخل البشري حتى ظهر بهذا الشكل المليء بالأخطاء والأهداف السياسية.. إن كانت التوراة هي العهد القديم.. والإنجيل هو العهد الجديد.. فالقرآن الآن بكماله وبلاغته وإعجازه هو العهد الأخير.. والذي يجب على كل من يريد أن يعبد رب «موسى وعيسى ومحمد» أن ينتهجه ويتّبع ما فيه.



الفصل السادس

رحلتي إلى الفاتيكان...

لطالما تساءلت كثيراً حول الفاتيكان وبحثت وقرأت عن هذا الصرح المقدس الذي يخفي وراءه تاريخاً وأسراراً وخبايا ودماء وأموراً ما تزال إلى يومنا غامضة! فأسأل نفسي وأقول: كيف أصبح للفاتيكان دولة مستقلة تمتلك هذه السلطة والوجاهة التي تخولها التحكم بالعالم ولم يأمرهم المسيح بذلك؟ وكيف تم تنظيم وتوزيع المهام الدينية بين أكثر من أربعة آلاف أسقف يحكمهم البابا من قصره الذي يحتوي على أكثر من ألف وأربعمئة حجرة ولم يأمرهم المسيح بذلك؟ من أين جاءتهم فكرة تقديس يوم الأحد الذي تقرع فيه الأجراس ويهرع الناس للصلوات ولم يأمرهم المسيح بذلك؟ ومن أين أوهموا أنفسهم بأن يبقى البابا أعزب مدى الحياة ولم يأمرهم المسيح بذلك؟ ومن أين أتوا أصلاً بشعار الصليب وجعلوه رمزاً للديانة المسيحية ولم يأمرهم المسيح بذلك؟ ومن أين أتوا بطقوس الاعتراف وصكوك الغفران ولم يأمرهم المسيح بذلك؟ وإن كانت تعاليم المسيح هي الحب والتسامح والغفران

والرحمة فكيف يكون تاريخ المسيحيين مليئاً بالحقد والعنف والحروب والقتل وإراقة الدماء؟ وإن كانت رسالة المسيح هي المحبة والسلام حيث إنه لم يخض يوماً حرباً ولم يقد جيشاً، فكيف قادت الكنيسة كل هذه الحروب والحملات الصليبية باسمه ومن أجل نشر ديانته؟ هل يُعقل أن يكون للفاتيكان والمسيحيين علاقة أصلاً بالمسيح؟!.. هنا يجب أن نرجع بالتاريخ ونعود للوراء حتى نعرف القصة من أولها عسى أن تكتمل الصورة..

في بداية دعوة المسيح في فلسطين اصطدمت دعوته ومعتقداته مع معتقدات الدولة الرومانية الوثنية التي كانت تحكمهم آنذاك بقيادة القيصر «بيلاطس» حيث كانت ديانة الرومان تتمثل بعبادة إله الشمس «سول» بينما جاءهم من يدعوهم لعبادة الله، اشتد التصادم بين دعوة المسيح وبين معتقدات الروم إلى أن قرر الروم بالتعاون مع اليهود القضاء على المسيحية، فبدؤوا بالقبض على الرأس الأكبر وهو المسيح، وحكموا عليه بالقتل والصلب.. وما قتلوه وما صلبوه بل رفعه الله إليه.

بعد ذلك بدأت سلسلة التخلص من تلامذة المسيح المعروفين (بالحواريين).. وبالفعل تمكن الروم من قتل ونفي كلٍّ من (بولس ومتّى ويهوذا ويوحنا) بينما استطاع «بطرس» أن يهرب إلى روما في إيطاليا.

وعندما وصل «بطرس» إلى روما بدأ يدعو إلى الديانة المسيحية بالخفاء والسر، حتى فُضح أمره حيث أمر القيصر «نيرون» بإعدامه، وهذا ما حصل إذ تم قتله وصلبه مقلوباً رأساً على عقب في نفس المكان الذي يُسمى اليوم بساحة القديس بطرس في الفاتيكان، ويُقال بأن قبره موجود تحت كاتدرائية القديس بطرس هناك!

واستمرت بعد ذلك الحرب الرومانية الوثنية على الديانة المسيحية حوالي الـ (٣٠٠ عام)! طوال هذه السنين وأتباع المسيح يمارسون دينهم بالخفاء، إلى أن تولى «قسطنطين» مقاليد الحكم عام (٣١٢م) ليصبح بذلك قيصراً للروم، هنا بدأت نقطة التحول في تاريخ الديانة المسيحية، فبعدما نشب خلاف بين «قسطنطين» و«ماكسينتوس» وشارفت الحرب على أن تقوم بينهما، كان «قسطنطين» يعرف جيداً بأن جيشه سيكون أقل عدداً، لذا جاءته فكرة غريبة! وهي أن يعترف بالمسيحيين من شعبه ليشاركوا معه في صفوفه أثناء المعركة، فجمع بذلك المسيحيين وقال لهم إنه وحين كان يصلي لإله الشمس «سول» من أجل مساعدته في المعركة القادمة، تفاجأ بظهور صورة المسيح أمامه بجانب إله الشمس، فقال له إله الشمس: بهذا الرمز ستنتصر!! وطبعاً هذا كله كذب ولكنه دهاء سياسي، وبالفعل شارك المسيحيون في المعركة وأمرهم «قسطنطين» بأن يضعوا شعار الصليب على دروعهم وكانت

هذه المرة الأولى التي يُعتمد فيها الصليب كرمزٍ للمسيحية، وبعد زحف الجيشين التقوا عند جسر ملفيا شمال روما، وهناك دارت المعركة التي انتصر بها «قسطنطين» انتصاراً كاسحاً لاتزال الكنيسة إلى اليوم تفتخر بهذا الإنجاز الدموي والذي تُطلق عليه «الفتح القسطنطيني».

بعد ذلك أخذ المسيحيون حقوقهم في التدين علناً وخرجوا من قوقعة الخفاء، ولأن «قسطنطين» يريد إرضاء جميع الأطراف (الوثنية والسماوية) أمر بدمج الديانتين، فجعل اليوم المقدس للمسيحيين هو يوم الأحد وهو اليوم الذي كان مقدساً لعبادة الشمس سابقاً وهذا سبب تسميته بـ «sun-day»، الأمر الآخر أنه حاول أن يقارب بين إله الشمس «سول» والمسيح في صفاتهما فأعطى المسيح لقب «شمس الحق» ومنحه نفس تاريخ مولد إله الشمس(٢٥ ديسمبر) والذي يُعرف اليوم «بالكريسميس»! وهو بلاشك تاريخ مكذوب لميلاد المسيح، ويتعارض مع ما ورد في إنجيل لوقا الإصحاح الثاني عن ولادة المسيح، حيث يذكر الإنجيل أنه وعند ولادة المسيح كان هنالك رعاة يرعون أغنامهم في الحقل فكيف يكون ذلك في الشتاء؟ ثم جاء القرآن مصدقاً لذلك ومؤكداً أن تاريخ ميلاد المسيح كان في الصيف وذلك فيما جاء في سورة مريم الآية (٢٥) من قول الله لمريم العذراء أثناء مخاضها ﴿وَهُزِّيٓ

إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [سورة مريم آيه ٢٥] ومن المعروف أن الرطب لا ينضج إلا صيفاً.

وبذلك يعتبر «قسطنطين» هو المؤسس الحقيقي للديانة المسيحية بشكلها الحالي، فهو من اتخذ الصليب شعاراً لها وهو من جعل يوم الأحد مقدساً وهو الذي أمر ببناء أول كنيسة عام (٣٢٤م) في الفاتيكان! ليوحّد بذلك الدين ويضمه مع جهاز الدولة، ويكمل بعدها رحلته في نشر المسيحية بحد السيف إلى أن وصل «للقسطنطينية»!

***

كان كرسي «البابا» ولايزال من أهم المناصب التي يسعى إليها الأساقفة لما يحويه هذا المنصب من سلطة مطلقة وامتيازات ليس لها مثيل، بل إن جاذبية هذا الكرسي جعلت قدسية الدين تتحول إلى صراعات دنيوية هدفها الوصول لهذا المنصب حتى ولو بالطرق المحرمة، وهذا ما حدث بالفعل في عام (٣٦٦م) عندما تقاتل الأسقفان «يورسينوس وداماسوس» على لقب البابا، وأحدث ذلك معركة كبيرة بين مؤيديهما ومعارضيهما أمام كنيسة (سانت ماريا ماجورى) وراح ضحيتها ما لايقل عن مئة قتيل، لينتهي الخلاف بفوز «داماسوس» بالمنصب وفور توليه

أعطى نفسه لقب «خليفة بطرس المقدس» وجعل من نفسه أسقفاً لروما كلها وتحلى بسلطة وقوة باباوية لم يسبق لها مثيل.

تاريخ الفاتيكان مليء بالدماء والدعارة والفساد والرشاوي والتزوير والتحريف بالدين والأمثلة على ذلك كثيرة، ففي عام (٣١٥م) حصلت حادثة شهيرة اسمها «الهبة القسطنطينية» والقصة باختصار أن قسطنطين تعرض لمرض جلدي وظهرت عليه آثار هذا المرض، فاقترح عليه البابا سلفستر أن يتحمم بدماء أطفال دافئة وهذا ما فعله «قسطنطين» والمضحك أن تاريخ الفاتيكان يذكر أنه تماثل للشفاء! وفي عام (١٠٣٣م) تولى منصب البابا الطفل «بندكت التاسع» وكان ذلك بفضل رشوة أبيه ولكن سرعان ما غرق هذا البابا الصغير في الدعارة والجنس وتفشت في عصره جرائم القتل والقمع والنصب حتى تزايدت الأحقاد من حوله وحين أحس بأن هنالك من يحاول الإطاحة به هرب خوفاً في الليل، وهذه لم تكن أول حادثة في تاريخ الدعارة الفاتيكانية، فلقد سبقتها في عام (٩١٤م) مرحلة سُميت بمرحلة «الإباحية» لما كانت تحتويه من شرعنة لأعمال الزنى وممارسات الرذيلة، وكان ذلك بقيادة البابا «سيرجيوس الثالث» الذي اتخذ من «ماروسيا» خليلة له لينام معها وقت ما شاء، إلى أن أنجبت منه سفاحاً ليصبح «يوحنا الثاني عشر» من سلالتهما بالمجون، وهو الذي تولى منصب البابا في عمر السادسة عشرة أيضاً،

الجدير بالذكر أن مرحلة الإباحية هذه هي التي أجبرت الكنيسة على أن تسن أنظمة لبقاء الأساقفة دون زواج للأبد أو حتى التفات للنساء..

كذلك التزوير والابتداع في الدين بلغ أوجه حين تولى البابا «جريجور» منصب البابا، وكونه مثل غيره في سعيه البشري خلف مصالحه الدنيوية، أراد التعزيز من قوة وسلطة كرسي البابا فخرج لنا بهذا الدستور وهذه الوثيقة التي تنص على:

١- أن الرب وحده هو من أسس الكنيسة الرومانية لذا فقوتها من قوته.

٢- البابا وحده هو الذي يستخدم شعار سلطة القيصر.

٣- على كل الأمراء تقبيل قدم البابا.

٤- اسم البابا يجب أن يكون فريداً وليس له مثيل في العالم.

٥- في استطاعة البابا أن يعزل القيصر متى يريد.

٦- أن الكنيسة الرومانية لاتقع في الخطأ أبداً وهي دائماً على صواب.

كل ذلك وأكثر من الفساد والغموض الذي يحف تاريخ وحاضر الفاتيكان، كان سبباً يجذبني لزيارة هذا المكان واكتشافه

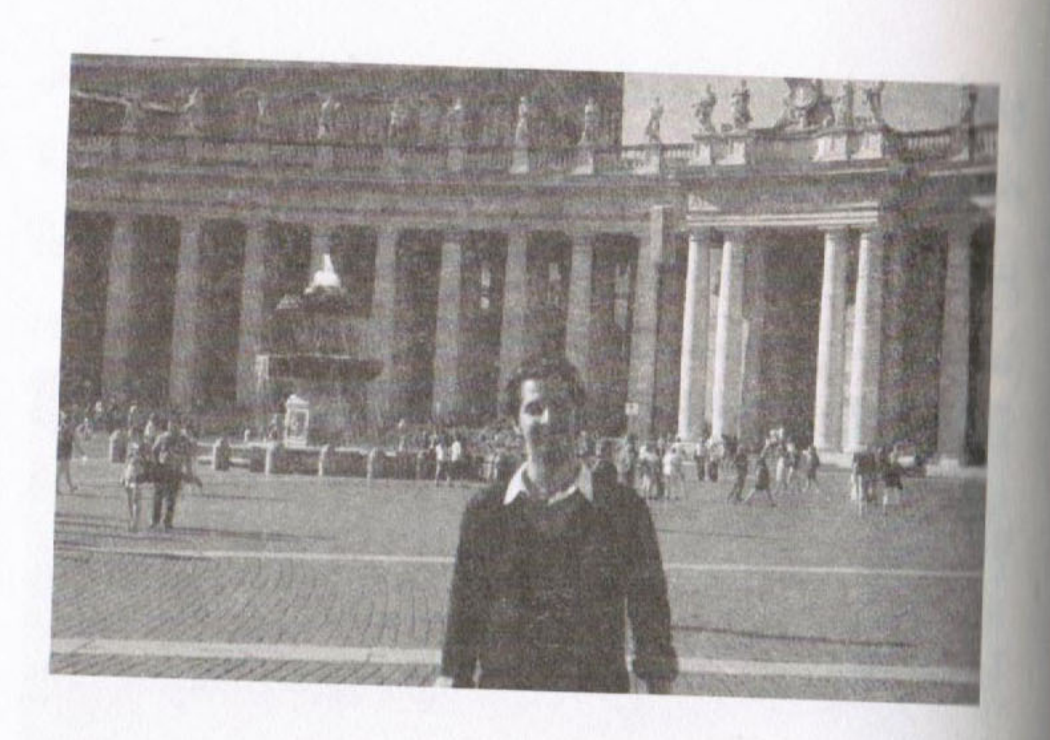
بنفسي، والحمد لله الذي منّ علي بتحقيق هذه الرغبة.[1]

***

كانت زيارتي في السابع عشر من شهر يوليو لعام (٢٠١١م)، وكنت محظوظاً جدّاً لأن ذلك اليوم يوافق يوم الأحد، وهو يومهم المقدس الذي تكثر فيه الصلوات داخل الكنائس ويجتمع فيه غالبية الأساقفة مع البابا، خرجت من الفندق الذي كنت أسكنه في روما برفقة صاحبي متجهين صوب الفاتيكان، في بداية الأمر ظننت أن الإجراءات ستكون مختلفة كوننا سندخل إلى دولة مستقلة، فأحضرت جوازي معي، إلا أني وبعد عبوري نقطة التفتيش الأولى أدركت أن الاستقلال ديني فقط ليمنح الفاتيكان سلطة مستقلة دون أن تكون قوتها مضافة إلى أي دولة في العالم، كان صاحبي يعتمر قبعة لتحميه من الشمس وهذا ما جعل حرّاس الأمن يلوّحون لنا بأن يخلع صاحبي ما يضعه على رأسه، فالكنيسة مكانٌ مقدس ومحرّمٌ فيها أن تضع شيئاً على رأسك فذلك ينافي الخضوع والتذلل، تجاوزنا نقطة التفتيش الأولى وأصبحنا بعد ذلك في داخل ساحة القديس بطرس، وهي ساحة كبيرة تستطيع أن ترى فيها مجمّع الكنائس وقصر البابا ويتمشى فيها الناس لأخذ الصور التذكارية، ولم أكن ببعيد عنهم فقد أخذت أنا أيضاً صورة تذكارية في ساحة بطرس.

---

١ - للاستزاده حول الفاتيكان انظر Die Geheimnisse Des VATIKAN.



«صورة لي في ساحة القديس بطرس في الفاتيكان»

ذهبنا بعد ذلك لنقطة التفتيش الثانية والتي ستمكن بعدها من الدخول إلى الكنيسة وهناك لفتت انتباهي لوحة الممنوعات التي كانت معلقة أمام بوابة الدخول ومكتوبة بمختلف اللغات يتخللها حتى اللغة العربية، وما لفت انتباهي تحديداً هو التعليمات المعنية بالمرأة، حيث يُمنع منعاً باتّاً دخول النساء بلباس غير محتشم وبدون غطاءٍ على الرأس، والآن أدركت لماذا لم يُدخل حرّاس الأمن بعض النساء عند نقطة التفتيش الأولى!! جميل أنهم أصبحوا يعرفون بأن الاحتشام «مطلب ديني».

عند دخولي بهرني الفن المعماري والنقوش والنحوت الموجودة

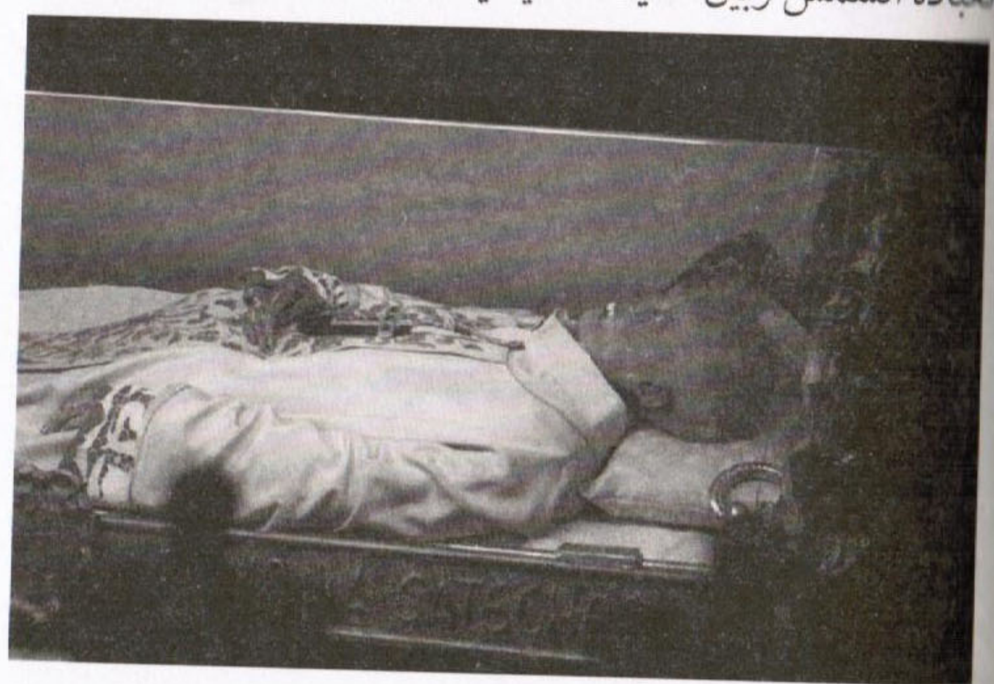


بداخل الكنيسة مع أصوات المنشدين الذين يغنون بعض الأغاني الدينية، كان المكان مزدحماً، والكل مشغولاً بالتصوير والسياحة، الأساقفة ينتشرون في كل مكان، أحدهم يعمّد المواليد وآخر يخرج الأشباح وآخر يصلي بالناس وآخر يسمع اعترافاتهم ليغفر لهم ذنوبهم وكأنه الغفور الرحيم.

وأثناء تجولي داخل الكنيسة وجدت أماكن مختلفة للصلاة فيها وكأن الصلاة الجماعية ليست إحدى غاياتهم، حيث تجد في كل زاوية مجموعة كراسي أمامها صليب وصورة إما للمسيح "يسوع" أو «مريم العذراء» أو «الروح القدس» وكأنها كنائس داخل كنيسة، لم أتذكر أنني شعرت بروحانية هناك، فالبرود الذي يتمثل بصور وتماثيل وأحجار لم يبعث لي أبداً بشعور غير الانبهار بالتحف الفنية لا أكثر.

يبقى أكثر ما أثار دهشتي هو الجثث المحنطة لبعض الباباوات والقديسين السابقين، كانت المرة الأولى التي أعرف فيها أن الفاتيكان هو كنيسة ومتحف للمومياوات في آن واحد، كنت أتأمل في أوجه وأطراف هذه الجثث وألتقط لها الصور بالخفاء لأني قرأت إشارة تفيد بمنع التصوير، ولكني أردت تخليد هذه اللحظة التي أرى فيها هذه الجثث المحنطة والتي لم أستطع أن أعرف لماذا لم تدفن إلى يومنا! ولكن لعل ذلك من الطقوس التي حرفوا بها

دينهم، الصلبان بأشكالها المختلفة موجودة في كل مكان، وفي كل صورة للمسيح تجد أن الشمس بازغة من خلف المسيح ليذكرنا ذلك بالتزاوج الذي حصل في عهد قسطنطين بين الديانة الوثنية لعبادة الشمس وبين الديانة المسيحية.



«صورة لجثة أحد الباباوات داخل الكنيسة»

ذهبت إلى المنصة الرئيسة وهناك وجدت أن الوقت قد حان من أجل أن يلقي أحد الباباوات كلمته، وفور صعوده على المنصة بدأ يتحدث باللغة الإيطالية دون أن يعير أي اهتمام في أن يفهم المسيحيون من مختلف الجنسيات ما يقوله، وقفت بين جموع الناس في محاولة مني لالتقاط بعض كلماته كوني قد درست اللغة الإيطالية، وفجأة شعرت بشخصٍ ما يضرب كتفي من الخلف..

ظننته صاحبي، ولكن عندما التفت إليه لأرى ما يريد فإذا هو رجلٌ مسيحي يبدو عليه آثار التدين لما يلبسه من صليب ويحمله في يده من كتاب، في البداية اعتقدت أنه سيخبرني أن وقوفي بين المسيحيين ممنوع نظراً لكوني لا أعبد ما يعبدون، ولكن تفاجأت حين سألني وقال باللغة الإنجليزية: هل أنت يهودي؟!.. لا أعلم إن كان شعري الأسود وعيوني السوداء أعطته انطباعاً بأني من بني إسرائيل! ولكني قلت له: لا أنا مسلم! ليرد علي ويقول: جميعكم سواسية! قلت له: سواسية في ماذا؟ فقال: لا تؤمنون بالمسيح!!، قلت له: بل أنتم وهم سواسية، قال: في ماذا؟ قلت: لاتعلمون شيئاً عن الإسلام.

تعرفت عليه أكثر في نقاشات جانبية تعارفية، اسمه «أليساندرو» وهو إيطالي الجنسية، رجل مسيحي متدين جدّاً ولكنه لايعرف عن الإسلام إلا ما تروجه وسائل الإعلام، طال الحوار الودي بيني وبينه وأعطيته رقمي وأخذت رقمه بعدما طلبت منه أن نكمل نقاشنا في مكان ووقت آخر لأوضح له أموراً كثيرة، فقوله إننا لانؤمن بالمسيح لم يرق لي، وحرصت أن ألتقي به مرة أخرى وهذا ما حصل.

اتصلت عليه في اليوم الذي يليه وأخبرته بأن الوقت الآن يناسبني لأن نجتمع وحاولت إقناعه بأن يكون لقاؤنا هو اليوم

نظراً لأني سأودع روما في اليوم الذي يليه ذاهباً إلى ميلانو، وافق «أليساندرو» على الالتقاء بي وتواعدنا عند نافورة «تريفي» الشهيرة في قلب روما، هناك وجدته قد سبقني حاملاً الكاميرا الخاصة به ويلتقط بعض الصور الاحترافية، ضربته على كتفه من الخلف بنفس الطريقة التي ضربني بها في الكنيسة، التفت ضاحكاً ورحب بي وبدأنا بالمشي، فالمشي رياضة أفتقدها كثيراً في بلادي لذلك لا أحب ركوب السيارات في أوروبا التي سخّرت شوارعها للمشاة، هناك ومع «أليساندرو» رأيت روما بشكل مختلف، فزياراتي السابقة لها كانت زيارة سائح يبحث عن الأماكن السياحية ويبحث عن المحلات الفارهة، ولكني مع «أليساندرو» رأيت شوارع وأزقة روما الجميلة كما يراها سكانها البسطاء.

كنا نتحدث خلال سيرنا على الطريق عن أمور مختلفة بعيداً عن النقاش الديني، فالإيطاليون يحبون كرة القدم ويسمونها (الكالتشيو) ونظراً لكوني مشجعاً لفريق يوفنتوس الإيطالي وأليساندرو مشجع لفريق الميلان، سرحنا بنقاشات المشجعين العقيمة، الكل يدافع عن فريقه ويعيب في الآخر وهذا هو ديدن الكرة.. لم يذكر التاريخ أن نقاشاً بين مشجعين قد جاء بنتيجة ولكنه سقط المتاع.

فجأة هطل علينا المطر بقوة رغم أن الجو كان مشمساً قبل

قليل.. ولكنها أوروبا التي تعيش في اليوم الواحد كل الفصول الأربعة، عندها أخذني «أليساندرو» إلى مطعم جميل يقدم «الباستا الإيطالية اللذيذة» رغم أنه وعدني بمطعم أفضل ولكن تساقط المطر المفاجئ قطع علينا الطريق وأعاق علينا إكمال المشي فأجبرنا على تغيير الخيار السابق والقنوع بهذا المطعم.

وهنالك جلسنا وبعد أن طلب كلٌّ منا ما يريد أن يأكله، بدأ النقاش الذي نعلم جميعاً أنه هو سبب لقائنا.

قال لي: قل لي ما لديك الآن؟

قلت له: سأبدأ نقاشي الديني من حيث انتهينا.. أي عندما قلت لي إننا لانؤمن بالمسيح!

قال: حسناً.. وهو كذلك..!

قلت: أنا أعلم بأن هنالك سوء فهم لدى غالبية المسيحيين وذلك نابع من جهلهم بتفاصيل الديانة الإسلامية، فهم يظنون أن الإسلام دين جديد ومستقل وخاصٌّ بالعرب وليس له أي علاقة بالأديان السماوية التي قبله ولا برب بني إسرائيل وهذا بالتأكيد خطأ.. فالإسلام دين سماوي مكمل ومصحح ما حصل على الأديان التي تسبقه، فنحن المسلمين مؤمنون بجميع الأنبياء الذين تؤمن بهم أنت..! فنحن نؤمن «بآدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل

وإسحاق ولوط ودانيال ويوسف وداود وموسى وهارون وعيسى المسيح» وغيرهم كثير ولكننا نزيد عليكم بإيماننا «بمحمد» والذي نؤمن بأنه خاتم الأنبياء، فرسالة الله لدينا ابتدأت «بآدم» وانتهت «بمحمد» عليه السلام، فتشبيهك لنا بأننا كاليهود في عدم إيماننا «بعيسى» غير صحيح، فاليهود فعلاً لا يؤمنون بنبي اسمه «عيسى» وكانت لهم اليد العليا في مؤامرة قتله وصلبه كما في كتابكم، ولكننا نحن المسلمين مختلفون، فنحن نؤمن «بعيسى» ونحبه ونحترمه بل ولا يمكن أن تكون مسلماً إذا لم تؤمن بنبي الله «عيسى» وبمولده العجيب من دون أب، وفي قدرته على أن يشفي المرضى ويحيي الموتى بإذن الله.. ونحن أيضاً مصدقون «بالإنجيل» الذي نزل عليه..

ثم سألته فقلت: هل تعلم كم مرة ذكر «عيسى» في القرآن؟

قال: طبعاً لا أعرف ولكني أتوقع بحكم أن القرآن كتاب «محمد» أنه لم يذكر إلا مرة!

قلت له: بل جاء ذكر «عيسى بن مريم» في القرآن خمساً وعشرين مرة!

ثم سألته وقلت: هل تعلم كم مرة ذكر «محمد» في القرآن؟

قال: مئات المرات فهو نبي القرآن!

قلت له: لم يُذكر اسم «محمد» في القرآن سوى أربع مرات فقط! فهل يبدو لك أننا لانؤمن «بعيسى» الذي جاء ذكره في كتابنا أكثر من رسولنا؟.. حسناً هل تعلم الآن كم مرة جاء ذكر «مريم العذراء» في القرآن؟

قال: لا أعلم أيضاً..

قلت: (٣٤) مرة.. وهذا يعني أن اسم «مريم العذراء» ورد في القرآن أكثر من الإنجيل الذي ذكرها (١٧) مرة.. فهل يبدو لك أننا لانؤمن بعيسى وأمه مريم ولا نحترمهما؟

قال: لا أخفي عليك أن هذه معلومات جديدة بالنسبة لي ولكن طالما أنكم تؤمنون بعيسى فلماذا لاتقبلون بعيسى وتجعلون نبيكم محمداً بدلاً عنه؟

قلت: المسألة ليست استبدال نبي مكان آخر.. نحن نؤمن بأن إيماننا بمحمد يعني قبولنا بجميع الأنبياء الذين قبله.. ويخبرنا الله في القرآن ألا نفرق بين أحدٍ من رسله.. فلايوجد لدينا مبدأ المفاضلة في التبعية، بل إننا نتبع نهج المسيح أكثر من غالبية المسيحيين أنفسهم، فحسب كتابكم المقدس جاء في سفر اللاويين الإصحاح رقم (١١) وكذلك في سفر التثنية الإصحاح رقم (٤) تحريم أكل لحوم الخنازير والمسلمون يلتزمون بهذا الأمر أكثر من غالبية

المسيحيين! وأيضاً ما ورد في كتابكم المقدس في إنجيل إفسيس الإصحاح رقم (٥) من النهي عن شرب الخمر وأنت تعلم بأن المسلمين يلتزمون بهذا الأمر أكثر من المسيحيين! وكذلك ما جاء في رسالة بولس الأولى الإصحاح رقم (١١) بوجوب أن تحتشم المرأة وتغطي رأسها أثناء الصلاة والمسلمات يلتزمن بهذا الأمر أكثر من المسيحيات وأيضاً ما جاء ذكره في كتابكم من أن المسيح خُتن في اليوم الثامن والمسلمون يلتزمون بهذه السنة أكثر من المسيحيين اليوم.. فكيف تقولون إنكم تحبون المسيح بدون اتباع تعاليمه؟

قال: كأنك تريد أن تقول لي بأن الإسلام لم يأت بشيء جديد! إذا كان الأمر كذلك وجميع تعاليم الإسلام موجودة لدى المسيحيين فما هي الحاجة لوجود دين إسلامي؟!

قلت: الحاجة لوجود دين إسلامي هي ما طرأ على المسيحية من تحريفات وتسييس وشذوذ كبير عن سنة المسيح.. فالكتاب المقدس لديكم يحتوي على نسخ عديدة ومن المستحيل أن تجد نسختين تتطابقان، هنالك فوضى إنجيلية، فالكاثوليك لديهم إنجيلهم الخاص وكذلك البابتيس، وأيضاً البروتستانت والآرثوذوكس، والكل يدّعي أن إنجيله هو الصحيح وعقيدته هي الصحيحة.

ناهيك عن الأناجيل والأسفار التي تم رفضها من الكنيسة لإجماعهم على تحريفها مثل «إنجيل برنابا» وأسفار «الأبوكريفا»..



وبالتأكيد أن هنالك حقيقة واحدة ولكن أين هي؟ فحدّاً لهذه الفوضى جاء القرآن لينسخ ما قبله ويجعلنا نوحد مصدر التعاليم السماوية في كتاب واحد لا توجد منه نسخ مختلفة مهما اختلفت الطوائف.. ودين واحد لعبادة رب بني إسرائيل وهو دين الإسلام الذي لم يحرف ولم يشوه بالتزاوج مع الديانات الوثنية كما فعل قسطنطين وعبّاد الشمس في الديانة المسيحية.. هذا علاوةً على أن المسيح لم يقل في إنجيلكم بأنه أتم الرسالة وأنه خاتم الأنبياء، بل العكس تماماً، فقد أشار لوجود نبي سيأتي بعده وهو من نؤمن بأنه «محمد»، كما جاء في إنجيل يوحنا الإصحاح رقم (١٦) في قوله «إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ».

قال: ولماذا لاتعترفون بالثالوث إذاً وبأن الأب والابن والروح القدس إلهٌ واحد وأن المسيح ابن الله..؟

قلت: هنا تكمن الإشكالية بيننا وبينكم، فأنتم جعلتم من المسيح إلهاً رغم أن المسيح نفسه لم يقل أبداً في كتابكم إنه إله وإن عليكم أن تعبدوه! بمعنى أني لا أعلم من أين جاءت فكرة تأليه المسيح والثالوث المقدس! تقولون بأن المسيح ابن الله لأنه

كان يسمي الرب في الإنجيل (أبي) رغم أن تسميته هي من باب الملاطفة ودليل ذلك أنه كان يقول لأتباعه (أبيكم) فهل هذا يعني أن الناس أبناء الله أيضاً؟ ولا أدري كيف فسرتم ما جاء في الإنجيل بأن المعنى أن المسيح ابن الله هو الابن الاستثنائي الذي أنجبه الله من رحم مريم!! فالإنجيل عموماً كان يسمي الأنبياء بأبناء الله كإبرهيم ويعقوب من باب الملاطفة أيضاً..

ولست أدري لماذا اخترتم أن تفهموا ماذا تعني ابن الله حين أطلقت على جميع الأنبياء ولكنكم تقصدتم عدم الفهم حين تعلق الأمر بالمسيح فجعلتموه ابناً استثنائياً لله!.. فتقولون إن المسيح ابن الله لأنه جاء من غير أب! إذاً وفقاً لهذا المنطق فآدم ابن الله الأكبر لأنه جاء من غير أب ولا أم؟ ثم تقولون إن الله واحد ولكنه يتمثل في ثلاث هيئات (الرب إله والروح القدس إله والابن إله) ولا أدري أي عقل يقبل بأن يكون ثلاثة أشخاص بصورهم التخيلية وكياناتهم المستقلة شخصاً واحداً! ثم كيف يستوي أن يكون الله واحداً في ثلاث هيئات إذا كنتم تقولون إن المسيح ابن الله! كيف أنجب الله نفسه!

قال: أنت من صعّبتها على نفسك.. فالأمور واضحة وهذا هو ديننا

قلت: الحمدلله أن ديننا يخاطب العقول.. وأن الله وجّه معظم

آياته إلى أولي لألباب وكان دائماً يخاطبنا بقرآنه فيقول: أفلا يعقلون، أفلا يتفكرون، أفلا يتدبرون، أفلا ينظرون.

***

انتهى نقاشنا المتعلق بالأديان.. أعترف بأنه لم يجدِ مع «أليساندرو» كونه كاثوليكيّاً متعصباً لدينه.. ولكني أشكره لإعطائي هذه الفرصة حتى أوضح له بأننا لسنا مثل اليهود في عدم إيمانهم بالمسيح... بل هم مثلهم في جهلهم عن الإسلام..!

***

الفصل السابع

يومٌ مع صالح...

من طبيعة الإنسان أن يقاوم كل تغيير تجاه أي شيءٍ قد ألفه وتوارثه من والديه وتربى عليه، ويشمل ذلك ما يرثه من ديانة أو معتقدات أو عادات وتقاليد، لذا لن تجد بسهولة من يتقبل فكرة أن يبدل دينه أو معتقداته أو عاداته، وعندما يتعرض هذا الإنسان لصدمات (عقلية) توقظه من ترسبات الماضي، يبدأ رحلته في البحث عن الحقيقة بعد أن صار خصيم عقله، فيظل حبيساً لحربٍ نفسية يخوضها ضد نفسه، محاولاً أن يجمع بين ما توارثه من نقل وبين ما اكتشفه بالعقل... والبطل هو غالباً من يستسلم لعقله..

جميعنا تعرضنا لمثل هذه الحرب العقلية مع أنفسنا ولو كان بشكل مصغّر، فتجد فينا من يقف حائراً أمام أي قضيةٍ ما، ويبحث فيها عمّا يصل به إلى قناعة شخصية تتفق مع ما يعقله، وأنا شخصيّاً لا أصف من تختلف آراؤه مع تقدم الأيام «بالمتناقض».. بل إني أعلم جيداً بأنه بحث وتأمل أكثر فوجد أن ما يلبي احتياج عقله في الفهم أمرٌ مغاير لما كان يعتقده في الماضي..

واجهت في حياتي كثيرين ممن بدلوا قناعات سابقة لهم إما على صعيد العادات أو المعتقدات أو حتى الأديان، وهذا حق مشروع للإنسان، بل إن التغيير يرتقي أحياناً لأن يكون مطلباً ربانيّاً ويتجلى ذلك في قول الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد آيه ١١] .. وتبقى الشجاعة في اتخاذك لقرار التغيير أمراً خاصّاً بك.

لم أرَ في حياتي رجلاً مثل «صالح».. فهذا المواطن الأمريكي استطاع أن يغير قناعاته بحثاً عن الحقيقة لثلاث مرات مختلفة، في كل مرة تحدث مستجدات تساهم في تنوير عقله في سعيه وراء الحقيقة التي يطمئن قلبه لها.

اسمه الحقيقي «كريج» وقد وُلِد من عائلة تدين بالديانة المسيحية، فاصطدم اثناء إبحاره مع عقله بعدة إشكالات لم تخوله أن يكمل في الديانة المسيحية فانتقل بعدها إلى الإلحاد فترة من الفترات، وما أن اكتشف عقله حقائق أخرى حتى آمن بوجود إله ولكنه قرر أن يكون لادينيّاً، وماهي إلا برهة من الزمن حتى قاده عقله أخيراً إلى اعتناق ديانة من الديانات الموجودة.. ولكنه اختار أن تكون عودته للأديان باعتناق دين (الإسلام)..

وبالتأكيد أن رحلة التنقلات العديدة التي قام بها «صالح» تتخللها حقائق وأمور كثيرة، ولربما أن الخوض في تفاصيل هذه

التجربة سيتيح للآخرين الاستفادة منها، خصوصاً أن من قام بها شخص باحث عن الحقيقة، وقد سعى لذلك بكل جدية وحيادية، بل وكان يفخر بكونه يملك جرأة وشجاعة لا يملكها الكثير من الناس، ألا وهي جرأة البحث في حقيقة أمورٍ مقدسة، وشجاعة اتخاذ القرار في التغيير وفقاً لقناعاته.

***

سمعت بقصة «صالح» لأول مرة عن طريق صديقي «عبدالعزيز» حيث كنت في أحد مقاهي الرياض أتحدث معه عن الأديان كعادتي دائماً، فذكر لي «عبدالعزيز» أنه التقى مصادفةً في محل لبيع الدونات برجلٍ أمريكي كبيرٍ في السن، فقرر الحديث معه وملاطفته كونه يريد أنّ يمارس لغته الإنجليزية، فطال الحديث بينهما ليكتشف «عبدالعزيز» أن هذا الرجل الأمريكي مسلم الديانة وقد اعتنق الإسلام قبل ثلاثين عاماً وأنه يتحدث القليل من اللغة العربية، وأنه يتردد بصفة مستمرة بزياراته للمملكة العربية السعودية وذلك للإشراف على بعض أنشطته التجارية في بيع وشراء التمور.

اقترح «عبدالعزيز» علي أن أقابله لأسأله عن تجربته وسبب تحوله من ديانة إلى أخرى، لم أكن وقتها أعلم بأن تنقلاته بين

المعتقدات والأديان كانت لأكثر من مرة، ولكن وافقت بسرعة على هذا العرض، فاتصل «عبدالعزيز» به وأخبره بأننا قادمان لزيارته للتعارف أكثر، فرحب بنا وأخبرنا أنه يجلس في نفس المقهى الذي يوجد به دائماً للقراءة، فركبنا السيارة وانطلقنا لمقابلته.

وصلنا للموقع المحدد، وفور دخولنا للمقهى وجدنا «صالح» يجلس في الركن ممسكاً بكتاب ويقرأ بهدوء، قدّمت نفسي له فرحب بنا بحفاوة، ودعانا للجلوس معه وعرض علينا شرب القهوة.

أردت بدء الحديث معه فقلت له: «ما شاء الله.. هل لي أن أعرف ماذا تقرأ؟» كان جوابه مفاجئاً لي إذ قال: «أقرأ كتاب The Heart of Islam».. قلت له: «أنت مسلم إذاً؟» قال لي وهو يضحك: «نعم أنا مسلم قبلك وقبل أن تولد».

أخبرته بأني أحب البحث عن الأديان والمعتقدات وبأني أتوق إلى معرفة السر الذي جعله يتحول من المسيحية إلى الإسلام، بدأ «صالح» حديثه وأخبرني بأنه لم يتحول من المسيحية مباشرة إلى الإسلام، بل مر بتحولات أخرى قبل أن يصبح مسلماً، حيث كان ملحداً ومن ثم لادينيّاً.

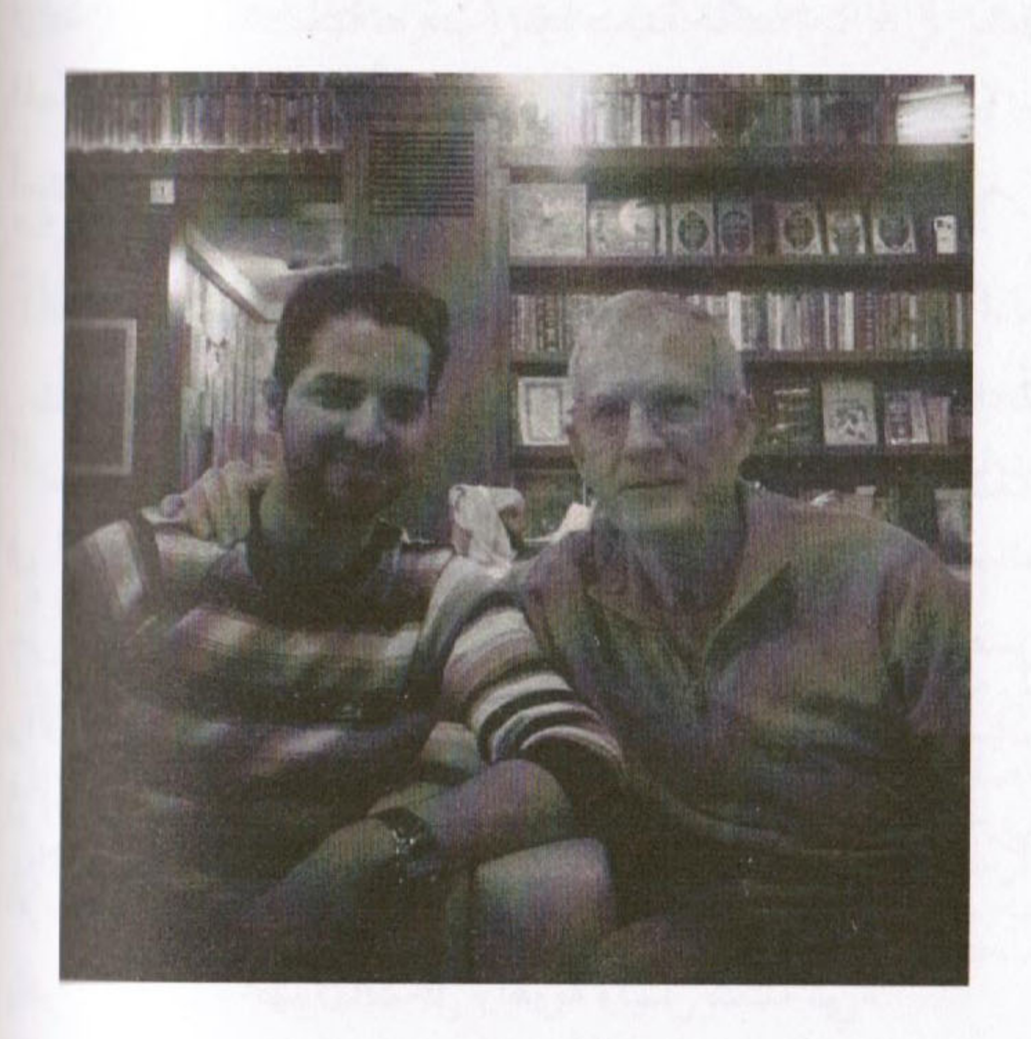
أخبرني صالح أن بداية الأمر كانت عن طريق التفكر والتأمل وذلك منذ أن كان شاباً صغير السن، فهو يثق بعقله كثيراً على حد

قوله وعقله هو الذي قاده في رحلته هذه للبحث عن الحقيقة، فيقول صالح: «إن عقلي يا بني لم يكن ليصدق ما توارثته منذ الطفولة عن الدين المسيحي، كيف لي أن أستوعب فكرة أن يكون خالق الكون متجسداً في ثلاث هيئات مختلفة (الأب والابن والروح القدس) أو ما يسميه المسيحيون بالثالوث!! كيف يعقل أن يكون هذا الرب متفككاً وكأنه لعبة المكعبات؟! وكيف لي أن أصدق بأن الإله من الممكن أن يكون له ولدٌ مثلي وقد أنجبه من امرأة من البشر؟ لم أستطع أن أوفّق بين هذه التساؤلات العقلانية وبين ما أسمعه من حولي وما أقرؤه في كتابي المقدس.

الناس من حولي اتهمتني بالتجديف والزندقة ولكني لم أكن أطلب أكثر من معرفة الحقيقة! لماذا كل تلك التناقضات في الإنجيل!! فالرب يقول في بداية الإنجيل إنه خلق الإنسان على «هيئته» في اليوم الخامس بعد خلق السماء والشمس والقمر والأرض والبحار والنبات.. ليخبرنا بعد ذلك أنه خلق الإنسان أولاً! ثم كيف لي أن أعرف كيف تبدو هيئة الرب الذي يخبرني الإنجيل أنه خلق الإنسان على هيئته!! الرب في نظري يجب أن يكون غامضاً ومجهول الشكل والهوية وليس كمثله شيء.

الرب في نظري يجب أن يكون عالماً للغيب والشهادة، لا أن يبحث عن آدم في الجنة لأنه لايعلم أين اختبأ عندما أكل الثمرة

المحرمة! فيخبرنا الإنجيل أن آدم كان يسمع خطوات الرب وهو يبحث عنه ويقول (أين أنت يا آدم؟) كيف يكون هذا الإله إلهاً عظيماً وأنا أستطيع أن أتصوره على هيئتي، ويتزوج وينجب مثلي، وعلمه محدودٌ مثل علمي.. فأنا كثيراً ما أبحث عن حاجاتي التي أضيعها وأنا أردد (أين ذهب قلمي)..»



«صورة تجمعني برفقة صالح»

أكمل «صالح» حديثه وقال: «كنت أبحث وأتساءل أكثر فأكثر من هذه التناقضات وللأسف لا أجد إجابات شافية تخلصني من صراعي الداخلي، حتى حين أطرح الأسئلة على متخصصين أو متدينين من الديانة المسيحية فأتفاجأ بأنهم لايقولون الحقيقة وكأنهم يرضون بالتدليس على أنفسهم»..

وفي أثناء حديث «صالح» عن التدليس تذكرت ما قاله الشيخ الأمريكي «يوسف إستس» حول الكذب الذي تعرض له خلال تحوله من المسيحية للإسلام، حيث يقول إنه بدأ بطرح الأسئلة التي تجول في خاطره على قس داخل الكنيسة، فقال له: لماذا تنعتون الإسلام بأنه دين انتشر بالسيف رغم أن كلمة سيف ليست مذكورة أبداً في القرآن ولا حتى مرادفاتها في اللغة العربية كالحسام والفيصل والمهند وغيرها وتتجاهلون أن الإنجيل احتوى على كلمة سيف أكثر من مائتي مرة، من ضمنها ما قاله المسيح بشكل صريح في إنجيل متّى «مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سيفاً إِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا» فأين أنتم من ذلك؟ يقول الشيخ «يوسف» إنه تفاجأ بالرد الذي قاله القس حيث قال إن الكلمة لم تكن سيفاً في بداية الأمر (Sword) بل كانت (Word) والتي تعني (كلمة) أي أن المسيح قال في الأصل ما جئت لألقي سلاماً بل كلمة!! ولكن من كان يكتب الإنجيل في الماضي أوقع

قطعة من الأكل الذي كان يأكله فاتسخت كلمة Word وأضيف أمامها حرف S من مخلفات الطعام بالخطأ.. فاعتمدت الكلمة بعد ذلك بهذا الحرف الدخيل ليصبح معناها (سيفاً)..!!

يقول «يوسف إستس» لم أتمالك نفسي كثيراً أمام هذا الكذب فقلت له: ألم ترَ أنها وردت بلفظ (سيف) أيضاً في الإنجيل الذي نزل باللغة الآرامية!! أم أن قلوبكم تطمئن لما تكذبون به على أنفسكم وعلى الناس الضعفاء؟

ثم كيف يأمر المسيح في آية أخرى من الإنجيل الناس ويقول لهم «وَمَنْ لَيْسَ لَهُ سَيف فَلْيَبِعْ ثَوْبَهُ وَيَشْتَرِ سَيْفًا».. فلو افترضنا أن المقصود بمعنى (السيف) كما تزعمون هو (الكلمة) فهل يعني ذلك أن الكلمات تباع وتشترى!!أم أنه يجب علي أن أنتظر منكم تبريراً وكذبة جديدة حيال ذلك؟!

ويقول «يوسف إستس» أيضاً: لم يقف الكذب هنا.. فقد حدث أمرٌ أكبر من ذلك من قبل حين ذهبت بالإنجيل إلى أحد المبشرين وعرضت عليه ما ورد في الكتاب المقدس في سفر العدد الإصحاح رقم ٢٣ من أن الرب يقول «لَيْسَ اللهُ إِنْسَانًا فَيَكْذِبَ وَلا ابْنَ إِنْسَانٍ فَيَنْدَمَ» وقلت له كيف تقولون إن المسيح إله والرب هنا يقول إنه ليس إنساناً ولا ابن إنسان؟ قال لي: نعم نعم هذا صحيح ولكن حرف (S) الذي يتم ذكره عند اسم المسيح

بصفته ابن الله في كلمة Son of God يكون حرفاً (كبيراً) وليس كما ورد ذكره في الآية التي أحضرتها أنت بهيئته الصغيرة (s) وفي هذا دلالة واضحة على الاختلاف بالمعنى المقصود وهو بلاشك لايمس ألوهية المسيح!!

قال له «يوسف إستس»: «متى تتوقفون عن نشر هذه الأكاذيب والضحك على الذقون.. ألا تعلمون بأن اللغة الآرامية التي نزل بها الإنجيل ليس فيها لا حروف ٌكبيرة ولا حروفٌ صغيرة..! فرد عليه المبشر ردّاً صاعقاً إذ قال: لاتقلق كثيراً فالناس يصدّقون ما نقوله..!».

***

وبالفعل .. يبدو أن غالبية إخواننا من الديانة المسيحية يصدقون كثيراً مثل تلك الأكاذيب دون أدنى تفكير بها، فلو كلّف أحدٌ منهم نفسهُ عناء عرض مثل هذه الأكاذيب على عقله وتدبرها لانتهى به المطاف مثل «صالح» الذي أكد لي قصة الشيخ «يوسف إستس» حول تلقيه مثل هذه الأكاذيب التي لاتسمن ولاتغني من جوع.. بل إنها تغرق الشخص أكثر وأكثر فيفتقد بينه وبين نفسه قدسية الدين.

يقول «صالح» بأنه لم يكن قد طرأ على باله فكرة الاطلاع على

الأديان الأخرى، فكان كل ظنه أن جميع الأديان لن تختلف كثيراً عن المسيحية وذلك في وجود رهبان وباباوات يمارسون الضحك والتلاعب والتحريف والتسييس، لذا كان خيار الإلحاد مصيراً محتوماً له في ظل أن جميع ما يقرؤه في كتابه وما يسمعه من حوله كان يقوده إلى الإلحاد ولا شيءَ آخر، فهو يرفض الخضوع وتصديق أكاذيب على حساب عقله، وكان يجهل بحقيقة الأديان الأخرى، لذا لم يكن أمامه سوى الإلحاد كخطوة للتغيير وإشارة منه لرفضه بأن يُخضع عقله لمثل هذه الخرافات والتناقضات.

يقول «صالح» إن عالم الإلحاد لم يكن بعيداً بخرافاته وأكاذيب علمائه عما كان يحدث له في المسيحية، فالملحدون يزعمون دائماً أن سبب إلحادهم هو «العلم» الذي قضى على الدين!! فيأتون بنظريات يخجل العقل من تصديقها حتى وإن كان العلم يباركها، فتجدهم يرفضون فكرة وجود خالق لهذا الكون ثم يأتون بنظرية بديلة اسمها نظرية التطور، ثم تجد أن العلم نفسه هو من ينسف نظرية التطور عند دراسة طبيعة الجينيوم البشري واستحالة تطوره وفقاً لهذه النظرية الغريبة! ثم تجد بعضهم يقولون إن الكون تكون من الانفجار الكبير الذي نتج عنه طاقة.. ولست أدري كيف يبررون أن أجسادنا وأجساد المخلوقات المادية تكونت من طاقة فقط؟ فإذا سألتهم وقلت لهم: كيف حدث هذا الانفجار العظيم إذاً؟ فلابد

من توفر كافة المواد المؤهلة لمثل هذا الانفجار! فكيف أتت هذه المواد المتفجرة ومن جعلها تتفاعل بعضها مع بعض؟ قالوا بأن ذلك ناتج عن قوة مجهولة ساهمت في إحداث هذا الانفجار!!.. لامشكلة لدي في قبول نظرية الانفجار الكبير كبداية لخلق الكون ولكني لا أعلم لماذا يكابرون في تفسير هذه القوة المجهولة على أنها الخالق..؟!

ثم يأتي علماء الفيزياء بنظرية غريبة مثل نظرية one-electron universe theory والتي تقول إن الكون كله يتكون من إلكترون واحد يتخبط بين جدارين وهميين فيتم قبول هذه النظرية رغم أن تصديقها يعد خرافة أكبر من تصديق فكرة وجود خالق!

يزعم هذا العلم دائماً أنه توصل إلى حلٍّ لجميع الألغاز وفك لجميع الطلاسم واستحضر جميع الأدلة التي تثبت أن الكون جاء مصادفة، رغم أن العلم الذي يتغنى به الملحدون لم يتمكن حتى هذه اللحظة من التوصل لمعرفة أسباب (تثاؤب) الإنسان فضلاً عن أن يتوصل لمعرفة حقيقة الخالق!

فعقلي الذي لطالما كان خصيمي والذي وقف معي كثيراً في رحلتي للبحث عن الحقيقة لم يقضِ حاجته في الإلحاد، فكل الشواهد من حولي تخبرني بأن هنالك خالقاً، لايمكن أن يوجد أي

شيء من المصادفة، وليس لنا أن نطلب تفسير التفسير لنوهم أنفسنا بأن تساؤلنا في محله، فتجدنا نقول: لو كان هنالك خالق فمن خلق الخالق ونطلب تفسيراً لذلك، ومن ثم نقول: ومن خلق الذي خلق الخالق؟ ومن خلق الذي خلق الذي خلق الخالق؟، والعلم نفسه هو أول من يقف في وجه المطالبة بتفسير للتفسير لأن ذلك سينافي جميع النظريات والحقائق العلمية، ويجعل كل شيء يدخل في دوامة لابداية لها ولا نهاية.

فقررت أن أُخفف من انتكاستي على ماكان يحصل لي جراء تديني بالمسيحية، وأصبحت «لادينيّاً».. فأنا على يقين بوجود خالق لهذا الكون ولكنني فضّلت أن لا أدين له بأي ديانة، وأنا أعترف بأن ذلك كان جهلاً مني، نظراً لأني لم أكن أعرف أي شيء عن الديانات الأخرى وظننت أنها لاتختلف عن الديانة المسيحية..!

تغيرت نظرتي بلا شك قبل ثلاثين عاماً وذلك عند زيارتي للمملكة العربية السعودية من أجل أن أعمل فيها، وهنا اختلطت بالثقافة العربية وأحببتها كثيراً، وقررت أن أخوض بها أكثر وأتعلم منها ما يسعني أن أتعلمه.

تعرفت قليلاً على ديانة الإسلام وعرفت لأول مرة أنه ليس ديناً مستقلًّا، بل يرتبط بعلاقة وثيقة بدياناتي المسيحية السابقة وذلك

حسب ما عرفته من المسلمين عن إيمانهم بعيسى وموسى وآدم وبغالبية قصص الأنبياء المذكورة لدى المسيحيين في الإنجيل، بالفعل بهرني وجود صلة بين اليهودية والمسيحية والإسلام، ولكني لم أتحمس لفكرة التعرف أكثر على الدين الإسلامي حيث ظننته نسخة معرّبة للمسيحية، فطالما أن جميع القصص المذكورة فيه متشابهة فذلك يعني أن الإسلام لم يأتِ بشيء جديد يستطيع أن يوفر لي إجابات مناسبة على تساؤلاتي التي واجهتها في المسيحية.

وفي أحد الأيام شاء الله أن يقع في يدي كتاب دعوي لغير المسلمين، وكان مضمونه عن حقيقة صلب المسيح! هنا أدركت أن هنالك شيئاً مختلفاً في النهج الإسلامي، فالمسلمون لايدينون بأن المسيح قد صُلب وقُتل! بل إنهم لايدينون أيضاً بأن المسيح رب أو ابنٌ لله! وإنما مجرد نبي ورسول مثله مثل إبراهيم وموسى!

دفعني فضولي بعدما عرفت أن هنالك اختلافاً في الدين الإسلامي إلى أن أقرأ وأتعمق أكثر، وبحثت عن الحقيقة بكل حيادية، كانت أسئلتي السابقة التي فشلت في الحصول على أجوبة عليها من المسيحية والإلحاد لاتزال عالقة في ذهني، وكنت في كل مرة أقرأ وأتعمق في حقيقة الإسلام والقرآن، أزداد يقيناً وعلماً بأن هنالك إشارات توحي لي بأن تساؤلاتي لها إجابات في هذا الدين.

فبمجرد معرفتي أن الخالق في الدين الإسلامي، لاتدركه



الأبصار ولم يتخذ ولداً له وهيئته غير معروفة وليست على هيئة البشر، وبأنه واحدٌ لاشريك له يعلم الغيب ولايضل ولاينسى، هنا أدركت أن هنالك ما يجذبني إلى هذا الدين، ففكرة الخالق التي رفضتها في البداية عندما كنت مسيحيّاً وذلك لأن تعاليم ديني السابق تخبرني بأن الخالق ينام ويندم ويتخذ له ولداً وله هيئة بشر ولايعلم الغيب ويتجسد في ثلاثة أشكال مختلفة لم ترتقِ لقناعتي، فوجدت هنا ما يناقضها ويدحضها وينزه الخالق عنها، فالخالق يجب أن يكون كما يذكره الإسلام وهذا كان أول المحفزات لي لتقبّل فكرة الدين الإسلامي على أنه دين مختلف ومصدره سماوي،

وبعد تعمقي أكثر بقراءة القرآن لم أتردد في اعتناق الدين الإسلامي، فقد وجدت فيه ما يكفي عقلي ليجعله على قناعه بأن الدين لايخالف العقل، وها أنا ذا أمامكما، رغم أني شخص كثير البحث والتغيير، ومرن جدّاً في التعامل مع أي مستجدات أو تغييرات تطرأ على فكري، إلا أنني توقفت في رحلتي وراء البحث عن الحقيقة عند الدين الإسلامي، ولا أزال مسلماً منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وهي أطول مدة مرت علي وأنا أعتنق فيها فكراً أو ديناً دون تغيير، فجميع ما أواجه من مستجدات وشبهات أجد لها جواباً شافياً في دين الإسلام، وها أنا مرتاح البال ولم أعد أعاني من ذلك الصراع الداخلي بيني وبين نفسي لدرجة أني اخترت «صالحاً»

اسماً لي، فأنا اليوم صالحٌ في بدني وعقلي، ولم أعد ذلك التائه الذي يصارع شتى أنواع الخراب النفسي.. نعم.. كنت أبحث دائماً عن الحقيقة...ولكني الآن أقول بملء قناعتي بأنني وجدتها..»

***

وهنا انتهى نقاشي الديني مع أخي «صالح»، وتبادلنا أرقام الهواتف متأملين في لقاءاتٍ أخرى.. كانت تجربتي في سماع قصته الشائقة عن تنقلاته الفكرية والعقائدية ملهمة جدّاً بالنسبة لي، هذا الرجل وغيره يجعلنا نتساءل دائماً ونقول: لم لانقدر نعمة الحقيقة التي ولدنا عليها ونبحر في تدبرها أكثر من مجرد توارثها..؟

***



الفصل الثامن

أم مُحجن...

ربما يكون اسم «أم محجن» غريباً على بعضنا، ولكن القصة التي يخفيها هذا الاسم وراءه تستحق منا الوقوف على ذكراها دائماً، نظراً لأنها تكشف لنا ما يثبت أن الموروث الثقافي لدينا طغى على الموروث الديني.. خصوصاً فيما يخص المرأة..

يذكر لنا التاريخ قصة «أم مُحجن»، تلك المرأة السمراء التي كانت تعمل في تنظيف المساجد في عهد الرسول محمدٍ عليه السلام، لم يكن أحدٌ ليمنعها من ممارسة هذا العمل الشريف رغم أنها امرأة! ولم يأمرها أحدٌ بأن تلزم منزلها وتهمل دورها الاجتماعي رغم أنها امرأة! ولم يكن أحدٌ ليهمش كيانها ويسلبها حقها رغم أنها امرأة!

ماتت «أم مُحجن» فسكت عن موتها الناس ظنّاً منهم أنها كانت مجرد امرأة، علاوة على كونها في مقام عامل النظافة ، أي إن خبر موتها لايحتاج لأن يذاع ويعطى أكبر من حجمه..! هكذا كانوا يظنون..!

مرت الأيام وتوارت ذكريات «أم مُحجن» وكادت تكون نسياً منسيّاً، حتى رأى الرسول عليه السلام قبراً.. فسأل عن صاحبه، فقالوا له: هذا قبر «أم مُحجن»، فغضب الرسول لأنهم لم يخبروه بموتها، ليتفاجأ جميع من حوله بالاهتمام الذي حظيت به هذه «المرأة» من رسول الإسلام، فقام الرسول برفقة صحابته وصلوا عليها صلاة الميت، ليقر الرسول بذلك قيمة لم تكن معهودة من قبل عن مكانة المرأة وكيفية الشكل الذي يجب أن تحترم عليه، ولم يتوقف الأمر هنا.. بل أخبرنا الرسول أن عملها في تنظيف المساجد كان أفضل ما نفعها في قبرها.. هنا فقط.. أقرّ رسول الإسلام مكانة عظيمة للمرأة.. كما أقرّ حقها في أن تعمل وتنخرط في المجتمع وتسعى خلف تحقيق أهدافها وتكوين ذاتها لتحصل على قوت يومها!.. وبذلك صار اسم «أم مُحجن» نموذجاً لما فعله الإسلام من احترام تجاه امرأة.. سمراء اللون...وعاملة نظافة..![1]

في نفس هذا الوقت وفي قارة أخرى اسمها «أوروبا»، كان الجهل سيد الموقف في حقبة زمنية اتفق المؤرخون على تسميتها (بالعصور المظلمة)، وذلك لما كان يعتريها من ضياع واستعباد وانعدام لأبجديات الأخلاق والإنسانية، هناك.. كانت المرأة تُصنف مع الحيوانات، وكان ممنوعاً عليها العمل والخروج من المنزل أو حتى ممارسة طقوسها الدينية في الملأ والحديث مع الغرباء ولو للضرورة،

١- انظر فتح الباري لابن حجر رقم ١/٦٥٨.

وفي ذلك الوقت أيضاً، كانت المرأة منبوذة وليس لها أدنى احترام، ويُحرم على الرجل النظر إليها ليس احتراماً لها.. بل لأنها كائن مقزز! كما كانت المرأة تعاني ممن يتهمها بأنها ملعونة وأنها هي من أخرجت آدم من الجنة وأن الشيطان هو من يتحكم بها، فكانت تُتهم عند أدنى فعلٍ لها بالسحر والشعوذة، فيتم في كل فترة حرق مجموعة من النساء واتهامهن بأنهن ساحرات.

وفي ذلك الوقت أيضاً، كانت بعض المتاجر تمنع أن تبيع للنساء أو تشتري منهن، وكان ممنوعاً على المرأة الخوض في المجالات الفنية، بل وممنوعاً عليها حتى كتابة الأدب والشعر والتمثيل، فبالرغم من ازدهار المسرح في تلك العصور إلا أن النساء يُمنعن من التمثيل عليه، فكان الرجال يتنكرون بأزياء نسائية لتمثيل أدوار النساء في المسرحية..!

وفي نفس الوقت الذي كان رسول الإسلام يصلي فيه على «أم مُحجن» كان الرجال في أوروبا لايحضرون جنازات النساء.. وبعضهم لا يقيم حتى حداداً عليها.. كان وجود المرأة رديفاً للدعارة والبغاء، والسحر والشعوذة، والكذب والخداع والنجاسة..

يذكر التاريخ أن المرأة كانت في محل شكٍّ دائم من قبل زوجها، فكان الرجل لايخرج من منزله إلا بعد أن يضع على زوجته حزاماً

حديدياً يُعرف باسم (حزام العفة) فيقفل عليها الحزام بالمفتاح ويأخذه معه إلى أن يعود للمنزل وذلك حتى لايتمكن أي رجل من أن يزني بها أثناء خروجه! وكذلك كان يوضع على وجه المرأة قناع حديدي ليمنعها من التحدث مع أحد أثناء خروجها من البيت.

ومن يصدق أن المرأة كانت تباع وتشترى بأرخص الأثمان، فيخبرنا التاريخ أن رجلاً في يوغوسلافيا باع زوجته مقابل حمار..! وآخرون في بلغراد يبيعون النساء على الميزان مقابل الحصول على معزة أو عدد من الدجاج![1]





«صورة تجمع بين شكل حزام العفة وقناع الوجه»

---

١ - للإستزادة انظر همس الجواري ١٤ - علاء اسماعيل.

نعم هما قارتان مختلفتان لحضارتين مختلفتين لديانتين مختلفتين أيضاً.. ولكن الإنسانية واحدة مهما كان الاختلاف، هي شعور فطري يولد مع الإنسان في أي مكان وزمان.. فإن تم نزعه من إنسان لابد من البحث عن الأسباب وراء ذلك..

بحثت وأنا أقول لنفسي بأني أريد أن أعرف السر الحقيقي وراء ذلك.. ماهو السر الذي جعل المرأة في «أوروبا» منبوذة وممنوعة من العمل بينما كانت في عصر الإسلام تعمل وتبيع وتشتري مثل «خديجة بنت خويلد»؟ وما الذي جعل المرأة ممنوعة في «أوروبا» من الكتابة والشعر والمشاركات الفنية بينما تجد منهن عند المسلمين شاعرات وكاتبات «كالخنساء وليلى الأخيلية»؟ ولماذا كانت المرأة تُمنع في «أوروبا» من التعليم بينما كانت في عصر الإسلام هي من تعلّم الناس أمور حياتهم ودينهم مثل «عائشة بنت أبي بكر»؟ ولماذا كانت المرأة رخيصة ليس لها قيمة في أعين الناس من حولها في «أوروبا» بينما تجدها سيدة عند المسلمين ولها كلمة على قومها «كهند بنت عتبة» ؟ بل تجد نساء المسلمين قد بلغن حتى المناصب العليا في عملهن كوزيرة الحسبة «الشفاء العدوية القرشية» في الوقت الذي تُباع به النساء في أوروبا مقابل المعزات والحمير..!

السبب هو سطوة المتدينين في «أوروبا» بأفكار دينهم البائسة تجاه

المرأة، والتي تصور لهم النساء على أنهن ملعونات ومن الشيطان وأن المرأة تابعة للرجل ولا يحق لها الحديث أو التعلّم أو العمل أو امتلاك المال.. أو حتى المشاركة بصوتها في مختلف أمور الحياة..

يمكننا القول بأن سبب التخلف في «أوروبا» كان نابعاً من المعتقدات الدينية، وأن ما تعرضت له المرأة من تخلف وجهل كان من مهام الكنيسة والكهّان آنذاك وبمباركة ما حرفوه في إنجيلهم عن المرأة المسكينة، ليجعلوها بهذا الشكل المخزي والمقزز..!

وبما أن سلطة الدين أعلى من سلطة الإنسانية.. فقد ظن الناس أن ما يطبقونه من تعاليم المتدينين والكهان هو مطلبٌ رباني.. وسيقودهم ما فعلوه إلى الجنة، لذا نُزعت من أنفسهم الإنسانية وأصبحوا يحتسبون الأجر جراء أفعالهم الشنيعة تلك.

وإذا سلمنا أن السبب في ذل المرأة الأوروبية كان دينيّاً، فيعني ذلك أن السبب في نصرة المرأة لدى العرب ديني أيضاً، خصوصاً إذا ما قارنا بين حال المرأة بعد الإسلام وحالها قبل الإسلام في الجاهلية، وتحديداً فيما كانت تتعرض له من ذل ووأد وانتقاص.. نستطيع أن نلخص فكرتنا بأن النقلة النوعية في تاريخ المرأة كانت بفضل الله بعد قدوم الإسلام.. فهذه المكانة للمرأة المسلمة لم تُمنح للنساء في الجاهلية ولا للنساء في مختلف الأوطان والديانات..! إلا

بعد أن تنازل الأوروبيون عن تعاليم دينهم واقتنعوا بأنه لايكفل لهم العيش بحرية وكرامة، فاستبدلوا به القوانين الوضعية التي تحكمهم إلى يومنا هذا..

***

من المفترض أن يكون حال المرأة في عصرنا الحالي قد اختلف في بلدان أوروبا عن الماضي، وهذا ما يعتقده أي إنسان.. وذلك نظراً لتخلص تلك البلدان من سطوة الدين واعتمادهم على القوانين الوضعية التي تتخللها «حقوق خاصة للمرأة» لحمايتها والدفاع عن حريتها.. إلا أني أتفاجأ في سفري للبلدان الأوروبية وغيرها من المناظر التي أشاهدها!! أعتقد أن هنالك سوء فهم لدى من يؤمنون بحرية المرأة إن كانوا يظنون أن الحرية هي تسهيل تخلي المرأة عن قيمتها وكرامتها كإنسان! أنا أعترف بوجود قوانين جيدة لديهم وتكفل للمرأة حقوقاً كثيرة ولكن أين القوانين التي تحمي قيمتها؟! هل كرامة المرأة وقيمتها الإنسانية وفق هذه القوانين تتجسد على أغلفة المجلات الجنسية في فرنسا التي تستخدمها كسلعة لجلب المال؟! أم بتعليق صورها عارية على كبائن الهواتف في بريطانيا العظمى؟! أم بوضع صور مثيرة لها بلباس البحر بجانب سيارة BMW في الإعلانات الألمانية من أجل التسويق بها والكسب من ورائها؟ أم بالطريقة التي تباع بها النساء في برشلونة

لممارسة الدعارة؟! أم بالطريقة التي توضع بها المرأة في شارع «الأضواء الحمراء» في أمستردام وتُعرض للفرجة أمام المارة كما تُعرض البضاعة!

كنت في مطعم في البرتغال عندما جاءني النادل بقائمة وسلمني إياها.. ولكن هذه المرة لم تكن قائمة طعام، بل قائمة لعرض الفتيات.. وقد كُتب سعر كل فتاة أمام اسمها! لم تثِر هذه القائمة إلا شفقتي بشكل جعلني أتساءل وأقول.. أين حقوق المرأة التي نسمع بها هنا؟ ولماذا لا تكافح هذه الحقوق ما يحصل لها من استغلال جسدي وهدر للكرامة والقيمة!؟

وإن كانت هذه الدول صادقة في حقيقة سعيها لتحرير المرأة وجعلها تهنأ بعيش كريم.. فلماذا لاتطالب هذه الدول المتطورة بإيقاف ممارسة المرأة للدعارة مثلما تطالب بحريتها؟!.. كل الدول الأوروبية التي تحتوي على منظمات لحقوق المرأة هي من تمنح رسمياً بطاقات العمل للنساء كعاهرات وكأن ذلك عمل شريف يليق بجهات تطالب بجعل حياة المرأة كريمة!

مما لاشك فيه أن هذه الدول تستفيد كثيراً من دخول النساء في هذا المجال وذلك ابتغاء كسب الأموال من ورائها..! للأسف أن المرأة لديهم صدّقت كذبة الحرية ووهم الحقوق.. ولو فكرت

قليلاً لأدركت أن من يسعى إلى منحها حرية وكرامة وعملاً شريفاً ورزقاً كريماً وقيمة شخصية لم يتوانَ لحظة واحدة في استخدامها كسلعة لجني الأموال.. وذلك في الدعايات والمجلات والأفلام وغيرها.. ولو كان صادقاً لكافح جاهداً في منحها عملاً يتماشى مع تلك الشعارات الرنانة..!

***

يجيبون على هذه التساؤلات فيقولون إن ذلك جزء من حرية المرأة التي كفلتها لهم قوانينهم! بمعنى أن الحرية هي من جعلت المرأة لديهم تمارس الدعارة متى ما أرادت ذلك؟!

هل تناسى هؤلاء أن ما دفع المرأة للإقدام على هذا العمل المشين هو الفقر والبحث عن لقمة العيش؟! وهل تناسوا أن المرأة بطبيعتها ترفض أن تُهان بهذه الطريقة ولو كان لديها ما يكفي حاجتها لما أقدمت على تسليم جسدها للناس على قارعة الطريق!؟ فإذا سلمنا أن السبب لممارسة هذه الأفعال هو الفقر والبطالة.. فلماذا لا تحارب منظمات الدفاع عن المرأة - إن كانت صادقة - فقر المرأة وبطالتها وتسعى لتوفير رزق كريم لها؟ أليس ذلك أولى من تسهيل إجراءات العمل لها كعاهرة؟! أم أن ذلك سيهدم مخططاتهم وسيؤثر على استفادتهم في جلب المال والسيّاح من زجها بمثل هذه الممارسات غير الأخلاقية؟.. أعتقد أن الأمور واضحة..

وإلى الآن لا أعلم كيف يفكرون عند تبريرهم لذلك بقولهم: «إن لدى المرأة رغبة جنسية تفوق الرجل بأضعاف.. ولذلك كان من حقها أن تلبي احتياجها وتمارس الجنس بالشكل الذي يرضي احتياجها!».

مما لاشك أن هذا ليّ واضح لعنق الحقيقة ومحاولة منهم لتحوير الموضوع من إذلال للمرأة إلى تكريم لها ومنحها لحق مزيف اسمه الحق الجنسي!!

نعم نحن نعرف جيداً عن وجود الرأي الذي يقول أن الله قد خلق المرأة برغبة جنسية تفوق رغبة الرجل بأضعاف - ولانجزم بذلك - ولكنه الرأي السائد، وقولهم أن الحكمة الربانية من ذلك هي أن يعمي الله المرأة عن التفكير في تبعات العملية الجنسية، أي من عناء الحمل لتسعة أشهر وآلام الولادة والنفاس لأربعين يوماً والرضاعة لسنتين ورعاية الطفل حتى يبلغ..! على عكس رغبة الرجل التي تنتهي فور الانتهاء من العملية الجنسية دون أن يكون لها أي عواقب جسدية، فلو أن الله خلق المرأة بنفس شهوة الرجل لاستطاعت أن تفكر في عواقب استسلامها للعملية الجنسية وما سيكون بعدها من تبعات.. ولكرهت الجنس..!

ويستشهدون دينياً بما أشار الله له في كتابه الكريم في سورة المائدة حيث قال ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ [سورة المائدة آية ٣٨] بينما قال في سورة النور ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي

﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [سورة النور آية ٢] ونظراً لأن القرآن يهتم في ترتيب الأولويات، فقد جعل السارق (الرجل) قبل السارقة (المرأة) كونه الأجرأ على هذا الفعل لما يملكه من مقومات جسدية وقوة جسمانية تخوله أن يقفز ويتسلق ويسطو ويدافع عن نفسه ويهرب.. أما في حالة الزنى فلقد جعل الله الزانية (المرأة) قبل الزاني (الرجل) وذلك كونها الأجرأ على هذا الفعل لما تملكه من تركيبة جسمانية تخولها أن تكون في حاجة أكبر للعاطفة والحب والإحساس المرهف وممارسة الجنس مع من تحب..! أي إن هذا الترتيب الرباني في وضع الحدود لم يكن بدون دافع وإنما كان الهدف هو ابتداء التهديد بمن هو أجرأ على القيام بهذا الفعل، وهذه من خصائص الله التي يعلم بها خلقه..

ولكن ذلك سيدفعنا إلى تساؤل فلسفي وسنقول: إذا آمنا أن رغبة المرأة الجنسية تفوق رغبة الرجل فلماذا وعلى مر تاريخ الدعارة، نجد أن الرجل هو الذي يدفع المال للمرأة التي تمارس ذلك الفعل معه؟! أليس صاحب الاحتياج الأكبر هو من عليه أن يدفع المال لمن قام بتلبية احتياجه؟! بمعنى آخر.. لو كنت أنا مريضاً وبحاجة إلى طبيب.. فهل حين يأتي الطبيب لعلاجي يقوم بدفع المال لي أيضاً وأنا صاحب الاحتياج؟ أليس من المنطق أن أدفع له أنا المال نظير خدمته لي؟! قس على ذلك ما نراه في البلدان

التي كفلت للمرأة حقها في ممارسة الدعارة كما يقولون.. أليست المرأة هي صاحبة الاحتياج الأكبر وهي من عليها أن تدفع المال للرجل نظير خدمته لها؟! إذاً ماهو السر وراء انقلاب الآية هنا؟!..

السر يكمن في طبيعة المرأة السيكولوجية، فالمرأة لا تستمتع بممارستها للجنس مع أي رجل إذا كانت لاتحبه، فمن حكمة الله أن ربط على قلب المرأة بمفتاح الحب حتى يتم تهذيب شهوتها بأن لاتكون إلا لشخصٍ واحد أثبت لها أنه صادق في حبها..

نستطيع القول بأن المرأة التي تمارس البغاء والدعارة لاتستمتع بالعملية الجنسية لأنها تمارسها مع رجل ربما لاتعرف حتى ماهو اسمه، بينما الرجل لايتطلب أن يكون عاشقاً للمرأة التي يمارس معها الجنس، فهو يستمتع كثيراً بأي ممارسة مع أي امرأة كانت، لذا فالمال الذي يدفعه الرجل للمرأة التي تمارس الدعارة رغم أنها صاحبة احتياج أيضاً هو في سبيل (التعويض).. أي أن الرجل يعوّض المرأة بهذا المال بأن تُسقط حقها في الاستمتاع بالجنس وتمارسه مع رجل لاتحبه..

لذا نجد في السنة النبوية توصية من الرسول عن أمر متعلق بفراش الزوجية يكفل فيه الرسول حق المرأة بالاستمتاع بالعملية الجنسية وذلك حين أمر الرسول بأن يبادر الرجل زوجته بالقبلات وكلام الحب قبل أن يجامعها.. إذ قال عليه السلام: «لا يقعن

أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة، وليكن بينهما رسول، قيل: ما الرسول يا رسول الله؟ قال: القبلة والكلام»..[1]

نستنتج من ذلك أن علم النفس والدين أثبتا أن المرأة تتعرض للاغتصاب الجنسي والاستغلال الجسدي في أوروبا وغيرها من القارات التي تبارك الدعارة بزج الأنثى وإقحامها في ممارسات لاتحبها ولاتستمتع غالباً فيها وذلك لأنها تمارسها مكرهة مع رجل لاتعرفه ولكنها قبلت خيار أن «يعوضها» بالمال نظير استمتاعه فخضعت لهذا الاغتصاب.. ولو كان لديها مال يكفيها شر اغتصابها.. لما خضعت لذلك.. حتى وإن بدا للجميع أنها هي من تريد..! وحتى وإن ردد خلفها المستفيدون منها وقالوا بأن اغتصابها هو «حق» من حقوقها..!!

أتساءل دائماً وأقول: أين القوانين التي من المفترض أن تحرر المرأة؟ أليست هذه هي العبودية بعينها؟ كيف يكون تحرير المرأة بشراء جسدها منها وإخضاعها لهذه الممارسات؟ وكيف يكون تحرير المرأة بتهيئة كل الظروف التي تجبرها على الموافقة على هذه الأعمال القذرة؟.. وللأسف.. تجد من يصدّق اتهامات هذه الدول وقدحهم في التشريعات الإسلامية على أن بها استعباداً للمرأة؟ وكأني حين أرى من يقول ذلك في دول الغرب أتذكر المثل الذي يقول «رمتني بدائها وانسلّت»..

---

١ - انظر الإحياء للغزالي ٢/ ٥٠.

واليوم في عالمنا الإسلامي، أرى الكثير من الممارسات التي شذت عن سنة الله ورسوله فيما يتعلق بالمرأة، فظهر الغلو والتنطع، وطغى الموروث الثقافي، وعلت العادات والتقاليد على الدين.. وهذا ما يدفعني إلى أن أتمنى أن يتقدم العالم الإسلامي إلى الأمام في مختلف الأمور.. إلا في أمرٍ واحد.. وهو ما يتعلق بالمرأة، فأنا مازلت أتمنى أن نعود بالأيام إلى الوراء..

نعم.. أريد أن يعود وضع المرأة إلى الزمن القديم، عندما جعل الدين النساء ركيزة في الدنيا، فعملن في السوق وفي البيع والشراء «كخديجة بنت خويلد»، وشاركن في الحروب والمعارك «كنسيبة بنت كعب»، وعملن كممرضات وطبيبات للمصابين «كأم ورقة»، وعملن بالإفتاء والتعليم «كعائشة بنت أبي بكر».. فالنساء في الإسلام جزء أساسي ولبنة من لبنات المجتمع، فكل ماكان حولها يدعوها لأن تنخرط في هذا المجتمع وتعمل وتجتهد وتتاجر لتحصل على قوت يومها ورزقها الكريم.

ألم تصلِّ النساء قديماً في مساجد الرجال وإن كان في الصف الأخير؟ ألم تعتلِ النساء المناصب العليا؟ ألم تشهد النساء في المحاكم؟ ألم تقُد عائشة معركة الجمل؟ ألم يبِح الإسلام للمرأة أن تحضر الخطب العامة وأن تبدي مشورتها؟ ألم تبايع النساء الرجال للإمامة والخلافة مثل «سبيعة بنت الحارث وسودة بنت زمعة» وقد

قال الله عن حق المرأة في المبايعة والتصويت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾؟ [سورة الممتحنه آيه ١٢] والكثير مما يدل على أن الإسلام أعطى المرأة قديماً مكانة عالية جدّاً خولتها كل شيء تقريباً..

فالإسلام لم يحارب أبداً انخراط المرأة في المجتمع ولكن وضع لذلك ضوابط وآداباً في التعامل بين الجنسين، فأمر المرأة بغض البصر وبأن تستتر ولاتتعطر ولاتلبس الخلخال ولاتتبرج وأن تغضَّ من صوتها حتى لاتتعرض للأذية من ضعاف النفوس، كما ذكر الله ذلك في سورة الأحزاب ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [سورة الأحزاب آيه ٥٩]، وفي المقابل أمر الله الرجال بأن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، وأن لايقطعوا الطريق على النساء وأن يفسحوا لهن بالمرور أولاً، ولو كان الإسلام يمنع المرأة من العمل والانخراط في المجتمع كما يزعم الكثير من الناس اليوم، فكيف يضع الإسلام ضوابط للتعامل بين الجنسين؟! هل يستوي أن يكون هنالك ضوابط في التعامل مع أمر محرم؟

الجواب بالتأكيد لا.. ولكن هنالك سوء فهم لدى من تشددوا في تأويل النصوص الدينية بالخطأ فيما يخص قرار المرأة في منزلها ونحوه.. ولو لم يكن للمرأة صوت مسموع في عصور الإسلام القديمة، لما استطاعت «سجاح» أن تكذب على قومها بأنها نبية، ولما استطاعت «أم قرفة» أن تؤلب قومها على الرسول أيضاً..

لا يوجد في رأيي تشريع فعلي أعزّ المرأة وكرّمها وحفظ قيمتها بقوانينه وتعليماته مثل دين الإسلام، ويلزمنا أن نتمسك بهذه التعاليم التي أعطانا الله إياها دون أن نشذ في تطبيقها بالزيادة أو بالنقصان..

ولاتنسَ أن الدول الغربية التي تزعم أنها حررت المرأة بتحريرها الوهمي.. كانت تعيش في عصور مظلمة يحكمها دينهم الذي يحارب المرأة ويقلل من شأنها.. فمن الطبيعي أن ترى مثل هذا الانفجار والانقلاب لديهم كردة فعل.. بينما تاريخنا كمسلمين مغاير جدّاً وعكس ذلك تماماً، فلا تنخدع كثيراً بشعاراتهم الرنانة، فظروفنا وماضينا تختلف عن ظروفهم وماضيهم..

ففي الوقت الذي كانت تباع فيه النساء لديهم مقابل البهائم.. كان رسول الإسلام يصلي على عاملة النظافة السمراء «أم محجن»..

***

الفصل التاسع

ونفسٍ وما سوّاها...

تناول القرآن الكريم موضوع (نفس الإنسان) بشكل رائع، وتفادياً للبس فقد فرّق الله بين الروح والنفس، حيث أخبرنا القرآن في سورة الإسراء أن الروح من أمر الله واختصاصه فهو الذي نفخها في خلقه ولن يعلم أحد من البشر تفاصيلها في ظل العلم القليل الذي آتاه الله للناس ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة الإسراء آيه ٨٥] ورغم تطور العلم في عصرنا إلا أن موضوع الروح لايزال غامضاً، فلم يتعرف أحد إلى حقيقة الروح وأسرارها وكنهها.. لتبقى كلمة الله هي العليا..

ولكن عندما نتحدث عن النفس، فسنجد أن الله أخبرنا بالكثير من أسرارها وتفاصيلها، منها ما قاله الله في سورة فصلت ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [سورة فصلت أيه ٥٣] وهنا نجد إشارة واضحة بأن ما توصل له الإنسان قديماً عن النفس البشرية ليس كل شيء، فهنا نرى وعوداً ربانية مستقبلية تؤكد وجود آيات في النفس البشرية وأمور كثيرة ستكشف حول هذه النفس وأسرارها وألغازها وطرق التعامل

معها، ونجد أيضاً أن الله أخبرنا في سورة الشمس بقوله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس أيه ٧] على أنه سوى النفس بعكس الروح التي نفخها، وطالما أن النفس قد سُويت فهذا دليل على أن لها تسوية خاصة بها تقودنا إلى أن نصل بها إلى أحسن تقويم خلقها الله عليه.. ومن هنا كانت أول إشارة من كتاب سماوي لوجود ما يُعرف اليوم ب (علم النفس) والذي يُعنى بتسوية النفس وعلاجها والمضي بها إلى أحسن تقويم..

يمكن تفسير علم النفس اليوم بأنه مجموعة من الدراسات العلمية لعقل وسلوك وشخصية وإدراك الإنسان بهدف الوصول إلى فهمها من أجل التعامل معها والتحكم في ضبطها وتسويتها..

يُعتبر الطبيب النمسوي «سيجموند فرويد» الرائد والمؤسس الفعلي لعلم التحليل النفسي المعاصر، وأبرز ما قدمه «فرويد» بعد دراسات متعمقة هو تقسيمه الشهير للنفس البشرية فيما يعرف (بالنظرية البنيوية)، حيث يقول «فرويد» إن النفس لأي إنسان تتكون في داخلها من ثلاثة أقسام رئيسة (الهو، والأنا، والأنا العليا..)

واذا أردنا أن نتعمق في معرفة تفاصيل هذا التقسيم فسنجد أن المقصود «بالهو» هو الغرائز الفطرية المكبوتة التي تعمل سعياً لتحقيق اللذة دون مراعاة للمنطق ولا للأخلاق..

يأتي بعد ذلك «الأنا» وهي حالة أكثر اعتدالاً من «الهو» أي إن النفس تسعى لإشباع غرائزها الفطرية ولكن مع مراعاة جانب الأخلاق والقيم الاجتماعية من حولها، فهي تقوم بتهذيب سلوكيات «الهو» وفقاً للواقع والظروف المحيطة..

وأخيراً يأتي بعد ذلك «الأنا العليا» وهي شخصية المرء الأكثر عقلانية وانضباطاً، فلا يتحكم في أفعال هذه الشخصية إلا القيم الأخلاقية والاجتماعية، مع بعدها الكامل عن السعي خلف الغرائز والشهوات.. وهي تمثل الضمير للإنسان.[١]

يلخص «فرويد» ذلك بأن «الهو» تمثل الجانب البيولوجي، «والأنا» تمثل الجانب السيكولوجي، «والأنا العليا» تمثل الجانب السيسيولوجي للإنسان.. ويأتي دور علم النفس في محاولة «التسوية» بين فجور كل نفس وتقواها.. ليكون الإنسان معتدلاً ومنضبطاً في حياته..

فالتسوية ضرورية هنا بين الأقسام الثلاثة، فلو غلبت «الهو» على الأنا والأنا العليا فذلك يعني ظهور إنسان سيئ الصفات يميل إلى الجانب الإجرامي «السيكوباتي» أكثر من أي جانب آخر.. بينما في حالة الموازنة بين الأنا وغيرها من الأقسام الأخرى فيعني ذلك وجود شخصية طبيعية معتدلة ومطمئنة ومرتاحة نفسيًا.. أما

---

١ - انظر Freud new introductory lectures.

في حال غلبت الأنا العليا على غيرها من الأقسام فذلك يعني أن الإنسان سيكون مثاليّاً وملاكاً مما سيؤدي به إلى أن يكون شخصية وسواسية قلقة كثيرة اللوم وتأنيب الضمير.. وهنا تكمن أهمية علم النفس في العلاج والموازنة..

ليست مصادفة أبداً أن يشير القرآن إلى ما توصل إليه علم النفس الحديث، وذلك بوجود هذه الأنواع الثلاثة من الأنفس البشرية.. فيخبرنا القرآن في سورة يوسف عن وجود النفس الأمارة بالسوء وهي التي تعادل «الهو» في قول الله ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [سورة يوسف ٥٣]..

كما يخبرنا القرآن في سورة الفجر عن وجود النفس المطمئنة وهي تعادل «الأنا» التي توازن بين «الهو» و«الأنا العليا» فتطمئن على ذلك ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [سورة الفجر آيه ٢٧]..

وآخر ما أخبرنا به القرآن في سورة القيامة، هو وجود النفس اللوامة، وهي تعادل «الأنا العليا» التي تمثل الضمير ويلوم فيها الإنسان نفسه كثيراً على ما ارتكبه سعياً خلف شهواته وغرائزه وذلك في قول الله ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢)﴾ [سورة القيامة ١، ٢]..

يخبرنا علم النفس اليوم عن الشخصيات المختلفة للبشر الناتجة عن التفاوت في الموازنة بين المكونات الثلاثة لكل نفس

بشرية (الهو، الأنا، الأنا العليا) حيث يقول علماء النفس بأنه تم حصر (١٤) شخصية مختلفة للبشر إجمالاً، لكل شخصية سلوكها وتصرفها الخاص والأهم من ذلك أن لكل شخصية طريقة خاصة للتعامل معها..

ويمكن تلخيص هذه الشخصيات بالتالي:

* الشخصية الفصامية: وهي الشخصية الانطوائية التي تفضّل العزلة.
* الشخصية الشكاكة: وهي الشخصية التي تعيش في شك حتى بدون وجود ما يدعم شكوكها.
* الشخصية الحدية: وهي الشخصية المزاجية والتي تتعصب لآرائها.
* الشخصية الاكتئابية: وهي الشخصية التي ترفض عمل شيء بسبب معاناتها وخوفها.
* الشخصية الاعتمادية: وهي الشخصية التي يعتمد فيها صاحبها على الآخرين.
* الشخصية التجنبية: وهي الشخصية التي لاتحب الاختلاط بالآخرين خوفاً من النقد.
* الشخصية المازوخية: وهي الشخصية التي تتلذذ بقبول الإهانة من الآخرين لفظيّاً وجسديّاً.

* الشخصية السادية: وهي الشخصية التي تتلذذ بإهانة الآخرين لفظيّاً وجسديّاً.
* الشخصية شبه الفصامية: وهي الشخصية المفعمة بالأفكار الغريبة والبعيدة عن الواقع.
* الشخصية الهستيرية: وهي الشخصية التي تريد أن تكون تحت أنظار واهتمام الآخرين.
* الشخصية السيكوباتية: وهي الشخصية الإجرامية التي تميل لمخالفة القوانين.
* الشخصية النرجسية: وهي الشخصية التي تشعر بعظمة الذات بشكل غير عادي.
* الشخصية الوسواسية القلقة: هي الشخصية التي تنشغل بتفاصيل الأمور وتفقد الجوهر.
* الشخصية السلبية العدوانية: وهي الشخصية التي تعامل غيرها بخبث غير مباشر.(١)

هذا تقريباً إيجاز لكل شخصية حسب ما توصل إليه علم النفس، مع أهمية التذكير بأن كل إنسان يتكون من مزيج من شخصيتين مختلفتين على الأقل، وتكمن أهمية علم النفس في ضرورة فهم كل شخصية ومعرفة كيفية التعامل معها بشكل يضمن التعايش بين الناس، فالإنسان لايملك القدرة دائماً على رفض كل شخص

١- انظر فهم الشخصيات - برفسور طارق الحبيب.

لا يتناسب مع شخصيته، فهنالك أشخاص قد يكونون مفروضين عليه، مثل زملائه في العمل، أو أقربائه، فالتعامل معهم وفهمهم في هذه الحالة هو السياسة المثلى..

نجد أن القرآن الكريم أشار لوجود شخصيات مختلفة تندرج تحت ما توصل له علم النفس، بالإضافة إلى أن القرآن أشار لكيفية التعامل المثلى مع كل شخصية بما يتناسب معها..

فإذا أردنا أن نحلل شخصية «فرعون» مثلاً فسنجد أنها مزيج بين شخصيتين، الأولى هي الشخصية «السيكوباتية الإجرامية» وذلك يتجلى في ما جاء في القرآن في سورة البقرة ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [سورة البقرة آيه ٤٩] ولا يقدم على قتل الأطفال الرضّع إلا من تجرد من أبجديات الإنسانية وتحلى بأعلى صفات المجرمين، أما الشخصية الأخرى فهي الشخصية «النرجسية» ويتضح ذلك فيما ورد في القرآن في سورة النازعات ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة النازعات أيه ٢٣، ٢٤] ..

يخبرنا علم النفس الحديث بأن أفضل طريقة للتعامل مع شخصية بهذا المزيج الخطير هو بتجنب شرورها، ونجد أن هذا يطابق ما جاء في القرآن الكريم في سورة طه، عندما أرسل الله موسى وأخاه هارون إلى فرعون فأمرهما بأن لا يستفزاه وأن يتجنبا

شره بالقول اللين ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة طه أيه ٤٤] ..

بينما نجد في شخصية أخرى وهي شخصية الملك «النمرود» أنها مزيج من شخصيتين أيضاً وهما الشخصية «الحدية» والشخصية «النرجسية» فهو إذاً متطرف شديد لآرائه ويعظّم نفسه كثيراً، وهنا يشرح لنا علم النفس الحديث أن الطريقة الأمثل في التعامل مع هذه الشخصية هي بعدم الاعتراض على آرائها أو مغالطتها، ولكن لامانع من مناقشتها بشرط أن يكون دون اصطدام أو اعتراض وذلك لامتصاص الموقف ولإشباع حاجة في نفس هذه الشخصية على أنها لاتخطئ، وربما يتضح ذلك في الطريقة التي أوحى الله فيها لنبيه «إبراهيم» بأن يحاور «النمرود» دون اصطدام أو اعتراض كما ورد في سورة البقرة ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة البقرة ٢٥٨].

جاء في القرآن عن شخصية النبي «يعقوب» عليه السلام، أن شخصيته مزيجٌ بين الشخصية الشكاكة والقلقة، وهذا يتضح في سورة يوسف، حيث يخبرنا الله أن أول ما فعله «يعقوب» عندما أخبره ابنه «يوسف» عن منامه أن قلق عليه وحذره من أن يقصها

على إخوته ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة يوسف أيه ٥]، وحين استأذن إخوة «يوسف» منه أن يأذن لهم بذهاب «يوسف» معهم قال بكل قلق وشك ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة يوسف أيه ١٣]، ثم يذكر الله لنا أنهم بعدما رجعوا بدون أخيهم «يوسف» عرفوا بأن أباهم شكاك ولن يصدقهم ولو كانوا صادقين، فبادروا بهذا القول على أنفسهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [سورة يوسف أيه ١٧].

ثم بعد ذلك يستمر القرآن في سرد ما يثبت أن شخصية النبي «يعقوب» قلقة وشكاكة، وذلك حين أمر أبناءه بأن لايدخلوا من باب واحد خوفاً عليهم من أن يُصابوا بالعين ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [سورة يوسف ٦٧] فيجيب الله على ما فعله «يعقوب» بقوله ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ [سورة يوسف ٦٨] بمعنى أن ما فعله «يعقوب» لن يغني عن شيء لو كان الله قد كتبه على أبنائه ولكن ذلك لحاجة في نفسه، وهنا أشار القرآن بشكل صريح إلى أن ما فعله «يعقوب» أمرٌ نفسي وله علاقة بتكوين شخصيته النفسية..

ويتشارك النبي «سليمان» مع النبي «يعقوب» في الشخصية «القلقة»[1] وما يترتب على هذه الشخصية من دقة الملاحظة والحضور الذهني، حيث يخبرنا القرآن عن أن الله سخر لسليمان ملك الجن والإنس وسائر المخلوقات، ومع ذلك كان فيه من القلق والحرص على ملكه أن لا يغيب عن ذهنه أي منهم، ويتجلى ذلك في ما ورد بسورة النمل من قول سليمان ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة النمل أيه ٢٠، ٢١].

والأمثلة على دقة الموازنة بين الشخصيات وبين أفعالها وطرق التعامل معها كثيرة في القرآن الكريم، فيخبرنا القرآن حول هذه الأمثلة ما جاء ذكره عندما بشر الله إبراهيم بإسماعيل وإسحاق، فعندما بشره بإسماعيل قال ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [سورة الصافات أيه ١٠١] ولكن عندما بشره بإسحاق قال ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [سورة الحجر ٥٣]، والموازنة القرآنية بين شخصية الحليم والعليم تكمن في ما ترتب على هذه الصفات لاحقاً، فلو لم يكن إسماعيل عليه السلام حليماً لما وافق على أن يذبحه أبوه إبراهيم حين قال له ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة الصافات ١٠٢] أما

---

١ – القلق والشك كمصطلحات علمية وصفات بشرية يخضع لها سائر البشر مع الحفظ الكامل لمقام الأنبياء عليهم التسليم.

علم إسحاق فهو ما توارثه بعده ابنه يعقوب وسائر نسله من بعده والذي قال عنه الله ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يوسف ٦٨] ..

وقس عليها ما ورد في الكثير من الصفات الشخصية للأنبياء في القرآن والتي تتوازن بشكل دقيق مع سيرتهم الذاتية، كوصف موسى بـ ﴿ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [سورة القصص أيه ٢٦] ووصف يوسف لنفسه ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف أيه ٥٥].

***

يذكر علم النفس اليوم ما يُعرف بمصطلح (التعامل بالمثل) أو Reciprocity وهو سلوك نفسي أشبه برد الفعل تجاه كل فعل يتعرض له الشخص، وغالباً ما يكون الشخص غير مسؤول عن ردة فعله نظراً لأنه تحت تأثير عاطفة إما إيجابية كرد الجميل أو سلبية كرد الإساءة..

يذكر لنا القرآن عن هذه الحالة النفسية في سورة الأنعام ليؤكد لنا أن نكف أذانا أولاً بأن لا نسب آلهة ومقدسات الآخرين، لأن ذلك سيجعل الله عرضة للسب من الطرف الآخر كردة فعل خارجة عن الوعي ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [سورة الأنعام أيه ١٠٨]، بغير علم أي بغير إدراك أو وعي.. فالإنسان غالباً يعامل بالمثل ولا يفكر بردة فعله على

عكس الشخص الذي بدأ بالفعل فهو الأقدر على ضبط النفس منذ البداية، لذا كان الخطاب الرباني بتحذير المسلمين من البدء بالاعتداء بأي شكل كان.. ومن هذا المنطلق نجد أن الشرع لا يعتد بالطلاق إذا كان تحت تأثير الغضب نظراً لأن ذلك التصرف غالباً ما يكون خارجاً عن الإدراك..

***

تؤكد دراسات طب النفس أهمية الجهاز «السمبثاوي» في الحفاظ على الجسم من الصدمات النفسية وذلك بإفراز الغدة الكظرية للأدرينالين الذي يعمل على ضخ الدم في الجسم وجعله مهيأ لامتصاص الصدمات وإبعاد الإحساس بها وكذلك تخفيف الشعور بالخوف أو القلق والارتباك بشكل مؤقت.. فالله سبحانه وتعالى أشار إلى هذا الجهاز في سورة الكهف حين قال الله عن أهل الكهف ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [سورة الكهف أيه ١٨].

وقد تساءل الناس قبل ثورة علم النفس عن هذه الآية وبالتحديد عن كيفية أن يكون (الفرار) قبل (الرعب)؟! فالمنطق يقول إن الفرار يجب أن يكون نتيجة للرعب.. بمعنى أن يخاف الإنسان أولاً ثم يهرب نتيجة لهذا الخوف.. لا أن يهرب ثم يأتي الخوف بعد ذلك!!

ولكن هذا السبق القرآني هو ما كشفه علم النفس الحديث عن الجهاز السمبثاوي وعن دور هرمون الأدرينالين في تخدير

الجسم عندما يتعرض الإنسان لمنظر مرعب جدّاً، فمن نعم الله علينا أن أكرمنا بهرمون الأدرينالين وإلا لأصبحنا عرضة للإصابة بالجلطات وغيرها من التشنجات عند حدوث أي صدمة، ويكمن السبب في مساهمة الأدرينالين بتقليل وتخفيف الشعور بالخوف أو الصدمة إلى أن يعود الإنسان لطبيعته ويكون الخوف قد انتهى وتمت السيطرة عليه..

فيخبرنا الله في هذه الآية بأننا لو اطلعنا على أهل الكهف فسنهرب نتيجة للخوف المبدئي ثم سيزداد خوفنا إذا عاد الجسم إلى طبيعته بعد أن كان تحت تأثير هرمون الأدرينالين نظراً لأن الجسم لن يتمكن من السيطرة على الخوف الناتج من الاطلاع على أشكال أهل الكهف.. فيستمر الخوف بالتزايد..!

ولم تتوقف إخبارات القرآن عن أغلب القوانين التي توصل لها علم النفس هنا، فها هو عالم النفس الأمريكي «إدوارد لي ثورندايك» ظهر بقانون أسماه «قانون الاستعداد» وهو ما يؤكد فيه أهمية التمهيد للنفس البشرية وجعلها مستعدة ومهيأة شيئاً فشيئاً لتتقبل أي تغيير لم تعتد عليه من قبل، ونلاحظ في القرآن أن الله سبحانه اتبع نفس النهج في أوامر التغيير على عباده، فقد حرّم الله شرب الخمر على مرحلتين، في المرحلة الأولى نهى الناس عن الصلاة وهم سكارى كما في سورة النساء ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [سورة النساء أيه ٤٣] حتى يعتادوا على ذلك شيئاً فشيئاً إلى أن حرمه بعد ذلك نهائيّاً في المرحلة

الثانية كما في سورة المائدة ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [سورة المائدة أيه ٩٠]..

وكذلك لم يحرم الإسلام الرق والسبي مباشرة بعد أن اعتاد المسلمون عليه، ولكنه بدأ يحبب الناس شيئاً فشيئاً إلى عتق الرقاب وتحريرها، بل وجعل الإسلام ذلك كفارة لأغلب الذنوب والأخطاء حتى يبادر الناس إلى ذلك، وها نحن نعيش في عصر تحققت فيه غاية الإسلام النبيلة ولم يعد يوجد به رق أو استعباد..

***

في عام (١٩٦٩م)، ظهرت طبيبة النفس الأمريكية «إليزابيث كيوبلر روس» بنظرية سُميت «بنموذج كيوبلر روس للمراحل الخمس»، تذكر فيها أهم خمس مراحل يتعرض لها الإنسان بشكل تسلسلي عندما يتعرض إلى صدمة أو إلى حزن، حيث بدأت بحالة الإنكار أو denial case كأول حالة من هذه المراحل، وتصفها على أنها آلية الدفاع النفسي القائمة على الرفض وعدم الامتثال التي يستخدمها الشخص ليواجه حقيقة غير مريحة أو صدمة غير متوقعة على الرغم من توفر أدلة دامغة تؤكدها.

مثال ذلك.. تخيل أن يدخل طالب جامعي إلى الاختبار دون مذاكرة، فلا يستطيع أن يجيب على أسئلة الاختبار، وفي اليوم الآخر وصلته رسالة تفيد بأنه نجح بالاختبار!! هنا سيتعرض لحالة

الإنكار وسيبدأ بالقول «مستحيل»!! رغم أن الشعور الذي من المفترض أن ينتابه هو شعور الفرح لهذا النجاح.. ولكن لأنه يعرف أن خبر نجاحه لايتماشى مع الطريقة التي أجاب بها في الاختبار سيدخل في حالة الإنكار المؤقت لحين الاستيعاب..

نلاحظ في القرآن أن حالات الإنكار وردت في مواضع صحيحة وفقاً لعلم النفس، فالحالة الأولى هي حالة الإنكار التي تعرض لها النبي «زكريا» بعدما بشره الله بقدوم ابنٍ له اسمه «يحيى»، فيخبرنا القرآن في سورة مريم ما قاله «زكريا» عند تلقيه صدمة الخبر ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾ [سورة مريم أيه ٨] وأيضاً ما ورد من قوله في موضع آخر في سورة آل عمران ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ ﴾ [سورة آل عمران آيه ٤٠]، فعلى الرغم من أن «زكريا» كان يدعو ربه بأن يهب له غلاماً وكان من المفترض أن يفرح لهذا الخبر، إلا أن دقة القرآن في النقل ذكرت حالة النكران التي تعرض لها «زكريا» وبرر ذلك بأنه طاعنٌ في السن وبأن زوجته عقيم..

حالة الإنكار الثانية وفق علم النفس هي التي تعرضت لها «مريم» عندما نفخ الله فيها من روحه وأخبرها بأنها حملت «بعيسى»، هنا تعرضت للصدمة ودخلت في حالة الإنكار وقالت ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴾ [سورة مريم ٢٠]..

أما حالة الإنكار الثالثة فهي التي دخلت فيها «سارة» زوجة النبي «إبراهيم» عليه السلام، وذلك حين بشرهما الله بقدوم النبي «إسحاق» بعدما يئست «سارة» من الإنجاب وانقطع حيضها وصارت عجوزاً، فيخبرنا القرآن في سورة هود عن قولها وإنكارها حين تعرضت لهذه الصدمة فقالت ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [سورة هود أيه ٧٢]..

***

ويخبرنا أيضاً علماء النفس اليوم، بأن حاجة الإنسان لشيء ما، هي المسؤولة بشكل رئيس عن تحديد خياله، فحاجته للأكل والمال والحنان والجنس هي التي تحدد ما يمكن له أن يتخيله، بل ويصل عمق الحاجة للشيء إلى درجة أن يتخيله أمامه، فيظن بأنه يراه على أرض الواقع، وهذا يلخص ما ورد في القرآن في سورة النور ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [سورة النور ايه ٣٩] فتحديد اللفظ القرآني لكلمة ﴿ ٱلظَّمْـَٔانُ ﴾ هو ما يتطابق مع ما يذكره علم النفس حول الخيال، فجميعنا نعلم أننا نرى السراب كالماء حتى لو لم نكن في حالة عطش! أي أن بمقدور القرآن أن يقول (يحسبه الإنسان)!! ولكن دقة القرآن في اختيار كلمة الظمآن تدل على حاجة الشخص القصوى للماء بشكل يؤثر على خياله بأن يحسبه واقعياً أكثر من أي شخص آخر..

في عام (١٩٧٠م)، نشر عالم النفس «دجوليوس فاست» كتاباً عن لغة الجسد، ليتم منذ ذلك الوقت اعتماد وتدريس لغة الجسد رسميّاً كأحد فروع علم النفس، فعلى الرغم من كون لغة الإشارة والإيماء والإيحاء سلوكاً فطريّاً يتعامل به البشر منذ ملايين السنين، إلا أنها لم تعتمد كأحد أنواع (الكلام) إلا مؤخراً في القرن الماضي، ليتم إلى يومنا تأليف الكتب وإلقاء المحاضرات والدروس حولها..

من يتأمل في القرآن، سيجد أنه تطرق للغة الجسد بشكلها الحالي حسب علم النفس، وذلك بأن جعلها أحد أنواع الكلام كما ورد في سورة آل عمران عن قصة النبي زكريا عندما طلب من الله أن يجعل له آية ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [سورة ال عمران ايه ٤١] ومن هنا نستطيع أن نرى أن الاستثناء بـ «إلا» رمزاً كان من «الكلام» بمعنى أن رموزك وإشاراتك الجسدية هي نوع من الكلام..

ويذكر الله عن «زكريا»ما فعله عندما خرج على قومه وهو ممنوعٌ من الكلام ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [سورة مريم ايه ١١] ولاحظ كلمة فأوحى والتي تفيد بأنه خاطبهم بلغة جسده كما أمره الله..

وكذلك قصة مريم التي أمرها الله بعدما أنجبت ابنها «عيسى» بأن تلتزم الصمت أمام أي أحد تلاقيه من البشر ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ

ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [سورة مريم ٢٦] ولاحظ أن الله يأمرها بأن (تقول) أنها لن تتحدث في الوقت الذي يأمرها فيه بأن تلتزم بالصمت!، وهنا إشارة ثانية وواضحة بأن القرآن اعتمد لغة الجسد كأحد فروع الكلام، وهذا يتطابق مع ما فعلته مريم لاحقاً عندما اجتمع حولها الناس فلم تخاطبهم ولكنها تعاملت بلغة الإشارة والجسد ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [سورة مريم ٢٩] ..

وأما ما يثبت أن القرآن أخذ لغة الإيحاءات وتعابير الوجه بعين الاعتبار، فهو ما جاء في سورة البقرة عن ما قاله الله لرسوله محمد عليه السلام حين رأى التقلبات في تعابير وجهه نظراً لأنه يريد تغيير اتجاه القبلة ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ [سورة البقرة أيه ١٤٤]..

والأمثلة القرآنية كثيرة على الحالات النفسية التي ذكرها القرآن قبل أكثر من أربعة عشر قرناً ليؤكدها في القرون القريبة ما يسمى اليوم بعلم النفس، والفرق أن علم النفس جاء من بعد دراسات المتخصصين، بينما القرآن جاء من أمي لايقرأ ولايكتب فضلاً عن أن يكون متخصصاً بالطب النفسي..! وهنا تكمن معجزة القرآن الكريم.

ولاعجب في أن يشخّص القرآن حالات البشر النفسية، طالما أن الذي أنزل القرآن هو من قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق آية رقم ١٦] .. فصدق الله العظيم..

***



الفصل العاشر

حقائق وظواهر طبيعية.. وأخرى خارقة

ولأننا من البشر، فالخرافات ديدننا، نحب كثيراً أن ننسب ما يدور حولنا إلى الغيبيات، نعشق المجهول كثيراً، ويجذبنا العالم المخفى بأسراره وألغازه وغموضه.. فنبتدع حوله أحلى القصص لنسلي بها أنفسنا..

وها نحن نعيش اليوم في زمن بلغ فيه العلم مراتبَ عالية في مختلف المجالات، فكشف لنا الستار عن الكثير من حقائق وأسرار بعض الظواهر والتي كانت الشعوب القديمة من مختلف الأديان تفسّر حدوثها بتدخلات الأشباح والجن.. والمشكلة أننا ما نزال إلى يومنا هذا ونحن نلهث وراء الغموض، وننسب بعض الظواهر التي لم يفسرها العلم إلى الأشباح والشياطين..

بل المشكلة الأكبر أن العلم والعلماء أنفسهم أصبحوا يروجون للخرافات.. فمن خرافة «مثلث برمودا» مروراً بخرافة «تجربة فيلادالفيا» إلى خرافة «نظرية الشبح» وأخيراً خرافة «المخلوقات

الفضائية».. ولاننسى خرافة «الإسقاط النجمي».. وعدةً من خرافاتٍ أُخر..

ويبقى السؤال.. هل تقدُّم العلم وحده هو المسؤول عن كشف الحقائق للناس؟.. أم أن للدين دوراً في ذلك..؟

هذا ما سأستعرضهُ هنا.. حيث سأذكر بعض الحقائق والقصص الغريبة.. وأيضاً بعض الظواهر الطبيعية وبعض النظريات الخارقة.. وماذا كان يظنها الناس قديماً وفق معتقداتهم.. لنرى ماذا كان موقف الدين منها.. وبالتحديد الدين «الإسلامي».. لعله ساهم في كشف تلك الأمور قبل العلم..؟

***

أولاً: نظرية العالم الموازي:

فكرة نظرية «العالم الموازي» تنص على وجود أكوان أخرى خلف الثقوب السوداء في الفضاء وفي كل كون أرض مثل أرضنا وفيها نسخ أخرى لنا تعيش هناك..

يتبنى هذه النظرية بعضُ علماء الفيزياء مثل «هيو إيفيرت».. إلا أن ذلك يجعلني أتعجب!! كيف يؤمن (فيزيائيون) بمثل هذه الاعتقادات؟!.. وما يجعلني أتعجب بالتحديد هو أن الفيزيائيين ماديون بطبعهم وغالباً لايؤمنون بالغيبيات أو «الميتافيزيقيات»

على حد قولهم، بل إن سبب تفشي ظاهرة الإلحاد بينهم هو قولهم بأن الله والملائكة أمور غيبية!.. فكيف يأتي بعضهم الآن بنظريات أشد غيبية من ذلك مثل نظرية العالم الموازي!؟

هذه النظرية لاتزال في طور الافتراض ولم يتم اعتمادها كحقيقة علمية، إلا أنها كانت فكرة قديمة متفشية بين الشعوب والحضارات السابقة وفي أديانهم أيضاً.. فما هو موقف الدين الإسلامي منها؟ وهل تطرق أو أشار لها؟

يزعم المسلمون ممن آمنوا بهذه النظرية وجود ما يثبت صحتها دينيّاً في القرآن والسنة.. فمن القرآن ما ذكره الله في سورة الطلاق عن وجود سبع أراضٍ ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق ايه ١٢].

أما من السنة.. فاستشهدوا بالحديث المروي عن ابن عباس رضي الله عنه، أن الرسول عليه السلام قال: (سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدمكم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى).. ولكن دعونا نبحر في هذه الأدلة..

لاشك أنه لم يرد في القرآن بشكل صريح عن وجود سبع أراضٍ.. إنما أشار الله لها بعدما ذكر أنه خلق السماوات السبع بقوله ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ وبالتأكيد أن القصد بهذه الآية هو وجود سبع

أراضٍ، ولكن طالما أن الله قال إن الأراضي السبع (مثل) السماوات السبع، وبما أن أبرز صفات السماوات أنها (طباقٌ) فلابد أن تكون الأرض طبقات أيضاً استناداً إلى هذه المثلية في الوصف..

لذا أنا أتبنى شخصيّاً في هذه المسألة رأي الدكتور «زغلول النجار»رئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وما قاله تحديداً وبصفته باحثاً جيولوجيّاً أيضاً عن أن العلم أثبت أن الكرة الأرضية تتكون في تركيبتها الداخلية من سبع طبقات مختلفة وهي:١- طبقة القشرة القارية وما تحت المحيطات، ٢- طبقة الصخور التي تحت القشرة، ٣- طبقة أثينوسفير، ٤- طبقة الوشاح الأعلى، ٥- طبقة الوشاح الأدنى، ٦- طبقة النواة الخارجية السائلة، ٧- طبقة النواة الداخلية الصلبة..

وهذا القول لايتعارض مع أحاديث الرسول عليه السلام التي تتحدث عن الخسف إلى سابع أرض.. أو أن بركة السجود تصل إلى سابع أرض.. بل إن صح فهو يحمل في طياته إعجازاً قرآنيّاً..

أما حديث أن في كل أرض نبيّاً كنبيكم وآدم كآدم ونوحاً كنوح وعيسى كعيسى.. فهو ضعيف وكما قال «البيهقي» أنه شاذٌّ بالمرة.. ولايصح الاستدلال به..

يتضح من ذلك أن نظرية العالم الموازي ضعيفة جدّاً ولاتليق إلا بمن يؤمنون بالخرافات كوحش بحيرة النيس ووحش (البيغ فوت).. ولاتليق بالعلم والعقل..

أما دينيّاً.. فهي تتعارض بنظري مع الآيات التي يخبرنا الله فيها عن استبدال خلق جديد بنا ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة إبراهيم آية ١٩] أو قوم غيرنا ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [سورة محمد آية ٣٨] وقوم آخرين يحبهم ويحبونه ﴿يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة آية ٥٤] وفي كل هذه الآيات إشارات إلى أننا الخلق القديم والوحيد في هذا الوجود..

نحن نؤمن بوجود نسخة لنا تعيش معنا اسمها (القرين) ونؤمن بعالم الجن والملائكة.. ولكن هذا مختلف عن نظرية العالم الموازي..

ثانياً: تناسخ الأرواح:

تنص نظرية تناسخ الأرواح على أن الروح موجودة منذ القدم، وتنتقل من جسد الإنسان بعد موته إلى جسد جنين على وشك الولادة.. ليولد من جديد في جسدٍ آخر..

طبعاً تتبنى هذه النظرية الأديان الوثنية كالبوذية والهندوسية والسيخية والشينتوية.. وتختلف عنهم الديانة الإغريقية بفكرة انتقال الروح من بشر لحيوان..

أما الأديان الإبراهيمية السماوية فترفض فكرة تناسخ الأرواح وانتقالها من جسد لآخر.. إلا ما تم تحريفه منها مثل طائفة الكابالا المشتقة من اليهودية..

وبما أننا نسعى لمعرفة موقف الإسلام تجاه هذه النظرية.. فيمكننا القول إن الإسلام يؤيد جزءاً منها ويرفض الجزء الآخر..

فالإسلام يؤيد الجزء الذي يقول إن روح كل إنسان مخلوقة وموجودة منذ القدم وقبل ولادته.. أما الجزء الذي يقول إن الروح تنتقل من جسد إلى آخر فهذا ما يرفضه..

ما ثبت في القرآن من أن الله خلق أرواحنا منذ القدم هو قول الله في سورة الحج ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [سورة الحج آية ٦٦] وكذلك قوله في سورة غافر ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [سورة غافر آية ١١] وأيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة آية ٢٨].

طبعاً الحياتان نعرفهما جميعاً (حياة الدنيا وحياة ما بعد البعث) ولكن ما هما الميتتان؟ ولماذا سمى الله مرحلة ما قبل الميلاد بالموت؟

لو سأل أحدكم نفسه وقال: «أين كنت قبل ٢٠٠ عام»؟ سيدرك أنه كان في الفناء.. وهذه هي الميتة الأولى.. فالله سبحانه سمى هذه المرحلة بالموت.. لأن الروح كانت مخلوقة ولكنها مفارقة للجسد الذي تنتظر أن تُنفخ فيه.. هي مثل الميتة الثانية التي ستفارق فيها الروح الجسد.. ليعود للفناء.. جميعنا قد جربنا الموت من قبل.. فلا تقلق..!

أما فكرة انتقال الروح بعد الموت إلى جسد آخر فيعارضها

القرآن كقول الله في سورة العنكبوت ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة العنكبوت آية ٥٧] وأيضاً في سورة الفجر ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) ﴾ [سورة الفجر آية ٢٧]..

فرجوع النفس إلى خالقها بعد موتها.. يقضي على خرافة انتقالها من جسد إلى آخر..!

* لقد فرّقت سابقاً بين النفس والروح، وهذا صحيح، والفرق بينهما أن النفس هي الي تتحكم بالروح، ولكن قبض النفس يقتضي قبض الروح معها، فالنفس تشمل الروح أيضاً .. ويتضح ذلك في قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢]، وقد فسّر الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك في الحديث الصحيح بقوله (إنَّ الله قَبَض أرواحَكم حِينَ شاء ورَدَّها حِينَ شاء) رواه البخاري .. فقبض النفس وعودتها إلى ربها ..هو قبضٌ للروح أيضاً.

ثالثاً: مخلوقات الفضاء:

ربما أخيفكم هنا.. ولكني سأوضح بعض الأمور والدلائل التي جعلت في أمريكا وغيرها من دول العالم من أفنى عمره في الدراسات بحثاً عن (مخلوقات فضائية)..! يحق لنا جميعاً أن نتعجب في عصر العلم، فأنا شخصياً أصاب بالدهشة عند رؤيتي

لقناة علمية جادة مثل «دسكفري» تعرض برامج عن مخلوقات الفضاء أو (Aliens).. فما هو السبب؟

السبب الأول في نظرهم هو سبب ديني.. فقد ورد في التوراة قصة للنبي «حزقيال» يصف بها بدقة هبوط مركبة فضائية بأنوارها ونزول طاقمها أمامه بأشكالهم الغريبة، ويقول النص التوراتي في سفر حزقيال «فنَظرتُ إلى فوقُ، فرأيتُ عاصفةً مُقبلَةً مِنَ الشِّمال، وبرقاً ينفجرُ مِنْ سحابةِ عظيمةٍ مُحاطةٍ بهالةٍ مِنَ الضَّوءِ، وفي البَرقِ كانَ ما يُشبهُ النُّحاسَ اللَّامِعَ. وفي وسَطِ العاصفةِ تَراءى لي شيءٌ كأنَّهُ أربعةُ كائناتٍ حيّةٍ تُشبهُ البشَرَ، ولِكُلِّ واحدٍ منها أربعةُ وُجوهٍ وأربعةُ أجنحَة، أرجُلُها مُستَقيمةٌ، وأقدامُها كقَدَمِ رِجْلِ العِجْلِ، وكانَت تَبرُقُ كالنُّحاسِ المَصقولِ. ومِنْ تحتِ أجنحَتِها أيدي بشَرٍ على جوانبِها الأربعةِ، وكانَ للأربعةِ وُجوهٌ وأجنحَةٌ، وكُلٌّ مِنْ أجنحَتِها مُتَّصلٌ بالآخَرِ على شكلِ مربَّعٍ وحينَ تسيرُ في اتِّجاهِ وجهِها، لا تدورُ. ولوجُوهِها الأربعةِ ما يُشبهُ وجهَ بشَرٍ مِنَ الأمامِ، ووجهَ أسدٍ عَنِ اليمينِ ووجهَ ثورٍ عَنِ الشِّمالِ، ووجهَ نَسرٍ مِنَ الوراءِ هذهِ وُجوهُها. وأمَّا أَجنحَتُها فمُنبَسِطَةٌ إلى فَوقُ، لِكُلِّ واحدٍ جناحانِ مُتَّصلانِ، أحَدُهُما بالآخَرِ، أمَّا الجناحانِ الآخَرانِ فيَستُرانِ أجسامَها. وكانَ كُلُّ واحدٍ منها يَسيرُ في اتِّجاهِ وجهِهِ وهكذا كانَت كُلُّها تسيرُ إلى حَيثُ يشاءُ الرُّوحُ دونَ أنْ تدورَ. وفي وسَطِ هذهِ الكائناتِ الحيَّةِ ما يُشبهُ جَمراتِ نارٍ مُتَّقدةٍ أو مشاعِلَ تـتحرَّكُ بِـغَيرِ انقطاعٍ، وللنَّارِ ضياءٌ

ومِنَ النَّارِ يَخرُجُ بَرقٌ. وكانَت هذِهِ الكائناتُ تَندَفِعُ ذَهاباً وإياباً مِثلَ البَرقِ. وبينما أنا أنظرُ إلى هذِهِ الكائناتِ الحَيَّةِ رَأيتُ دولاباً واحداً على الأرضِ بجانبِ كُلِّ واحدٍ منها. منظرُ الدَّواليبِ كمَنظرِ الزبرْجَدِ وَلأربعتِها شَكلٌ واحدٌ وتركيبُها كأنَّما كانَ الدُّولابُ في وَسَطِ الدُّولابِ. فعندَ سَيرِها تسيرُ على جوانبِها الأربعةِ ولا تدورُ حينَ تسيرُ. ولِكُلٍّ مِنَ الدَّواليبِ الأربعةِ إطارٌ مُغطًّى بالعُيونِ مِنْ كُلِّ جهةٍ. وعِندَ سَيرِ هذِهِ الكائناتِ الحَيَّةِ تسيرُ الدَّواليبُ بجانبِها، وعِندَ ارتفاعِها عَنِ الأرضِ ترتفِعُ معَها الدَّواليبُ».

طبعاً التوراة يؤمن بها المسيحيون أيضاً وهي موجودة في الإنجيل باسم (العهد القديم).. وهذه القصة للنبي «حزقيال» كانت بداية الإيمان بوجود مخلوقات فضائية عند أهل الكتاب..

أما السبب الآخر فهو السبب التاريخي.. وكانت بدايته عندما ظهرت مخطوطات قديمة كتبها «أفلاطون» يتحدث بها عن مدينة اسمها «أطلانطس» والتي كانت متطورة جدّاً في بنيانها.

فمخطوطات «أفلاطون» ووصفه للمدينة المفقودة بدقة وذلك من تطور ومركبات وطائرات.. جعلت بعض العلماء يقولون إن عصرنا ليس أول عصر عبر التاريخ يصل لهذا التطور الذي ننعم به، بل إنهم يقولون إن علمنا الحالي لايزال عاجزاً عن تفسير ما توصل إليه العلم القديم.. لذلك لاتزال هنالك أمور مجهولة إلى يومنا كطريقة بناء الأهرامات وأعمدة هرقل..!

ما زاد بعض العلماء إصراراً على نظريتهم.. هو ما وجدوه من نقوش في أهرامات مصر تُظهر بشكل واضح صورة لغواصة وهيلوكبتر وطائرة!.. والعجيب أنهم يقولون إن هذه النقوش موجودة نفسها في الأهرامات الأخرى لحضارة المايا والأزتك.. وكأنها شعار (للمقاول) الذي بناها في قارات مختلفة.

الأمر الآخر.. هو ما أثبته العلماء - بطريقة ما - من أن القيصر «يوليوس» جاء من إيطاليا لمصر وتزوج من «كيلوباترا» ورجع في يومين فقط! مفسرين وجود مركبات متطورة ساعدته في رحلته السريعة!.. والأدلة الغريبة على هذا الموضوع كثيرة ولايسعني ذكرها ولكني سألخص النتائج في ثلاث نقاط وهي التي انقسم عليها العلماء:

القسم الأول: من يقولون إن هذه خرافات وأوهام صنعها عقل الإنسان وإن قصة النبي حزقيال معجزة تخصه.. وإن نقوش الفراعنة نحن من يتخيلها كذلك..

القسم الثاني: لايستبعدون أن الإنسان توصل من قبل لمرحلة عالية من التطور والعلم ولكنها اندثرت إما بالطوفان أو غيره من الكوارث على الأرض..

القسم الثالث والأخير.. مؤمنون بأن الفضائيين حسب التوراة هم من هبطوا على الأرض وتعاونوا مع البشر في تنمية حياتهم وتطوير عمرانهم ثم رحلوا لسبب ما.. ومازال البشر عنهم يبحثون..!

فأين ترى نفسك..؟



«صورة توضح النقوش التي وجدت داخل أهرامات مصر»

رابعاً: الكسوف والخسوف:

مما لاشك فيه أن سبب الكسوف هو ما أثبته علم الفلك من التقاء الأرض والقمر والشمس في امتداد واحد نتيجةً للدوران بحيث يكون القمر في وسطهما، إلا أنه قبل التوصل إلى هذه الحقيقة العلمية مرت ظاهرتا الكسوف والخسوف بآلاف التفسيرات الخرافية وكل تفسير نابع من ديانة ومعتقد يدعم تلك الخرافة..

فعلى سبيل المثال: تفرعات الديانة البوذية والشينتوية بشرق آسيا كانوا يؤمنون أن الشمس ابتلعها تنين فيصلون له حتى يتركها..

أما الفراعنة والمصريون القدامى فكانوا يؤمنون أن الإله حورس (وهو الإله الشهير على شكل صقر) هو من حجب الشمس غضباً فيهرعون للصلوات إليه ليتركها

أما الإغريق فكانوا يؤمنون أنه تهديد من الإله ديانا (إلاهة القمر).. وكذلك الهندوس الذين يعتقدون أن الشيطان ابتلع الشمس فيتطهرون في نهر «الجانج» ليرحل عنهم..

وغيرها من الديانات الوثنية والحضارات كالمايا وآشور وسومر جميعها تقول خرافات وأساطير بعيدة عما أثبته العلم.. الآن سأنتقل إلى نظرة الأديان السماوية..

لايزال اليهود يؤمنون بما جاء في التوراة في «سفر يوئيل الإصحاح الثاني» من أن الكسوف من علامات زوال إسرائيل فيصلون ليغفر الله لهم ويمنع زوالهم

المسيحون يؤمنون أنها من علامات حزن الله لموت رجل صالح حسب تفسيرهم لما جاء في الإنجيل في «لوقا الإصحاح الثالث والعشرين» عن كسوف الشمس لموت عيسى..

ويبدو أن فكرة المسيحيين عن كسوف الشمس وخسوف القمر وارتباطهما بحزن الله لموت رجل صالح كانت سائدة آنذاك ووصلت حتى للعرب في الجاهلية، فحين مات إبراهيم ابن النبي

محمد عليه السلام صادف أن تكون الشمس مكسوفة بنفس اليوم فارتبط في أذهان المسلمين علاقة هذه الحادثة الحزينة بالكسوف..

فلو كان الرسول كما يزعمون يبحث عن الوجاهة والسلطة لاستغل ذلك وقال إن الكسوف الذي حصل هو حزنٌ من الله على موت ابنه..! إلا أن محمد بن عبدالله أول من وضع حدّاً للخرافات إذ قال في حديثه الشهير (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته).(١)

وهذا بالفعل ما أثبته العلم من كونهما ظاهرتين فلكيتين لاعلاقة لهما بالخرافات..

خامساً: الأبراج:

لايخفى على أحد تفشي ظاهرة علم الأبراج وهي الزعم بالقدرة على التكهن والتنبؤ بمستقبل كل إنسان استناداً إلى الشهر الذي وُلد فيه وما يوافقه من نجم سماوي.. الأمر لايقتصر هنا بل وصل إلى إخبار المرء بسلوكه وصفاته وتقديم نصائح له ليحسن اختيار شريك المستقبل حسب تناسب الأبراج بينهما..

المشكلة تكمن لدى من بالغوا في اهتمامهم بتلك الأبراج وجعلوها ترتقي من طور التسلية والاستئناس إلى كونها حقائق علمية.. ولستُ أدري كيف سلّم هؤلاء عقولهم لتصديق إخبارات

١- رواه البخاري رقم ١٠٦٣.

مستقبلية لايعلم عنها إلا الله مع أن المفترض أن يكون هؤلاء أكثر من آمن بأن تنبؤات الأبراج ليست سوى خرافات، نظراً لتجاربهم السابقة مع الكثير من التنبؤات المستقبلية التي قرؤوا عنها من قبل ولم تكن شيئاً مذكوراً..

لا أعتقد أن موقف الدين الإسلامي غير واضح حيال موضوعات التكهن والتنجيم وادعاء علم الغيب.. ولكني سأتوقف قليلاً عند من قالوا بأن الأبراج علم صحيح وقد ذكره الله في القرآن.. واستشهدوا بالأدلة التالية:

قول الله سبحانه في سورة البروج ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [سورة البروج آية ١] حيث يقولون إن هذه إشارة بأن الله أقسم بالأبراج أو البروج.. رغم أن سائر كتب التفاسير تقول إن البروج هي النجوم كقول الله ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [سورة الفرقان آية ٦١] إلا أني لا أعلم كيف استنتجوا من هنا حقيقة التنبؤ بالمستقبل؟ وهذا يُقاس أيضاً على استشهادهم بقول الله في سورة الواقعة ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة آية ٧٦].. وهنا نسأل أنفسنا ونقول: هل نأخذ بقولهم من أن المقصود بعظمة مواقع النجوم هو خزعبلات الأبراج أم المقصود بهذا الإعجاز القرآني هو ما أثبته علم الفلك من

أن بعد المسافة بين الإنسان والنجوم تجعل مايراه من نجوم السماء هو مواقعها فقط التي مرت بها ثم غادرتها قبل مدة..؟

قول الله في سورة الصافات عن نبيه إبراهيم ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [سورة الصافات آية ٨٨] حيث إنهم يحاولون الربط بين نظر سيدنا إبراهيم إلى النجوم وقوله بأنه سقيم كإحدى القراءات التي دلت عليها نظرته في النجوم..! نعم نحن نعلم أن الله اختص النبي إبراهيم بإطلاعه على ملكوت السماوات كما ورد في سورة الأنعام ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة الأنعام آية ٧٥] إلا أني لا أزال أتساءل أين الرابط بين علم الأبراج وتنبؤاته المستقبلية وبين هذه الآية التي لو قرؤوا قصتها لعرفوا بأن سيدنا إبراهيم لم يتنبأ كما يزعمون من نظرته للنجوم بأنه سيكون سقيماً.. وإنما قال ذلك نوعاً من التورية حتى لايذهب مع قومه للاحتفال بعيدهم الوثني ويتفرد بتكسير أصنامهم.. فهل هم يصادقون هنا على أن إبراهيم عليه السلام لم يكن سقيماً بالفعل وبالتالي أن النظر بالنجوم هنا لم يأتِ بنتيجة واقعية!؟.. أترك الإجابة لهم

في الحقيقة لا أحد منا ضد التخطيط المستقبلي وتقديم النصائح حوله فهذا أحد أركان علم الإدارة والذي يدعمه الإسلام، إلا أن علم الأبراج المزعوم لاعلاقة له بالتخطيط المستقبلي بل أرى أنه

ساهم بتأخير الكثير من الناس عن تطوير ذاتهم أو تطوير صفاتهم وذلك باكتساب السلوكيات والصفات من حولهم.. بل وربما ساهم في تعطيل دور الأبوين التربوي على أبنائهما وذلك لإيمان الأبوين المصدقين بالأبراج أن ابنهما سيكون سلوكه كذا وصفاته كذا.. فيتم الحكم عليه وعلى سائر الأشخاص حكماً سابقاً.. غالباً ما يكون جائراً..!

***

الفصل الحادي عشر

البقرة والعزير والتابوت

يحتوي القرآن على الكثير من الأمور المشتركة بيننا وبين الكتب السماوية التي سبقتنا، بل إن الأمر يستدعي أحياناً أن يبحث بعض المختصين من المسلمين في التوراة أو الإنجيل لأخذ تفاصيل أكبر مذكورة لديهم تجاه أمورٍ صادق الله عليها في القرآن، مثال ذلك قصة النبي دانيال عليه السلام والذي ورد اسمه في الإسلام بأحاديث صحيحة إلا أن علماء المسلمين رجعوا لأخذ تفاصيل قصة هذا النبي من التوراة حيث ذُكرت هناك بسفر كامل يحمل اسمه «سفر دانيال»..

ما أود قوله أن طلب مزيدٍ من تفاصيل بعض القصص التي وردت في القرآن من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل يعتبر ظاهرة صحية أحياناً لتقوية الإيمان بما أخبر الله به محمداً عليه الصلاة والسلام ووجد مكتوباً عندهم.. وها نحن اليوم ربما نتساءل عن الكثير من الآيات التي تصادفنا في القرآن ونشعر بالرغبة في الحصول على مزيدٍ من تفاصيلها ليشفي ذلك فضولنا وغليل تساؤلنا.. وأنا هنا لن أتحدث إلا عن ثلاثة أمثلة فقط..

أولاً: بقرة بني إسرائيل:

قد يتساءل أحدنا يوماً مع نفسه فيقول: لماذا سُميت سورة البقرة في القرآن الكريم بهذا الاسم؟ كيف تُسمى سورة عظيمة باسم حيوان يميل الناس غالباً لاحتقاره إلى درجة أن بني إسرائيل قالوا لنبيهم موسى حين أمرهم أن يذبحوا بقرة ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؟ [سورة البقرة ٦٧].

طبعاً ما يجعل هذا التساؤل في محله هو أن البقرة من الأنعام، وتجد أن الله شبّه الأنعام في القرآن بمن يصدون عن ذكره كقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ [سورة الأعراف ١٧٩] وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ [سورة محمد آية ١٢] ووجه التشبيه هو الاحتقار في ثقافتنا العربية، أي أن ذلك يؤكد أن الحيوان ذو مقامٍ محتقر..

وإذا بحثنا أكثر في سبب تسمية سورة البقرة.. فسنجد أن تسمية السورة كانت في عهد الرسول عليه السلام، حيث جاء ذكرها في أحاديث صحيحة أشهرها توصية الرسول بقراءة البقرة لأنها تطرد الشياطين.. لذلك فالتسمية لم تكن باجتهادات الصحابة بعد وفاة الرسول وإنما في عهده.. وهذا ما يؤكد تساؤلنا.. لماذا سماها بهذا الاسم؟

معرفتنا للإجابة على هذا السؤال مرتبطة بمعرفتنا عن لماذا اختار الله بقرة وليس حصاناً مثلاً؟

يتطلب الأمر أن نعود للوراء إلى عصر الفراعنة حيث كان للبقرة شأن عظيم جعلها أحد آلهة الفراعنة ولعل أشهرها الإله (آبيس)..

بنو إسرائيل قبل نبوة موسى وأثناء العبودية لدى فرعون كانوا مؤمنين بآلهة الفراعنة وثقافة تقديس البقر.. ومازالت فيهم رواسب حتى بعد انفلاق البحر، ففكرة تقديس البقر كانت لاتزال عالقة في أذهانهم لدرجة أنهم قاموا بعبادة العجل كما ذكر بالقرآن في أربعة مواضع مختلفة كقول الله ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [سورة البقرة آية ٥٠].

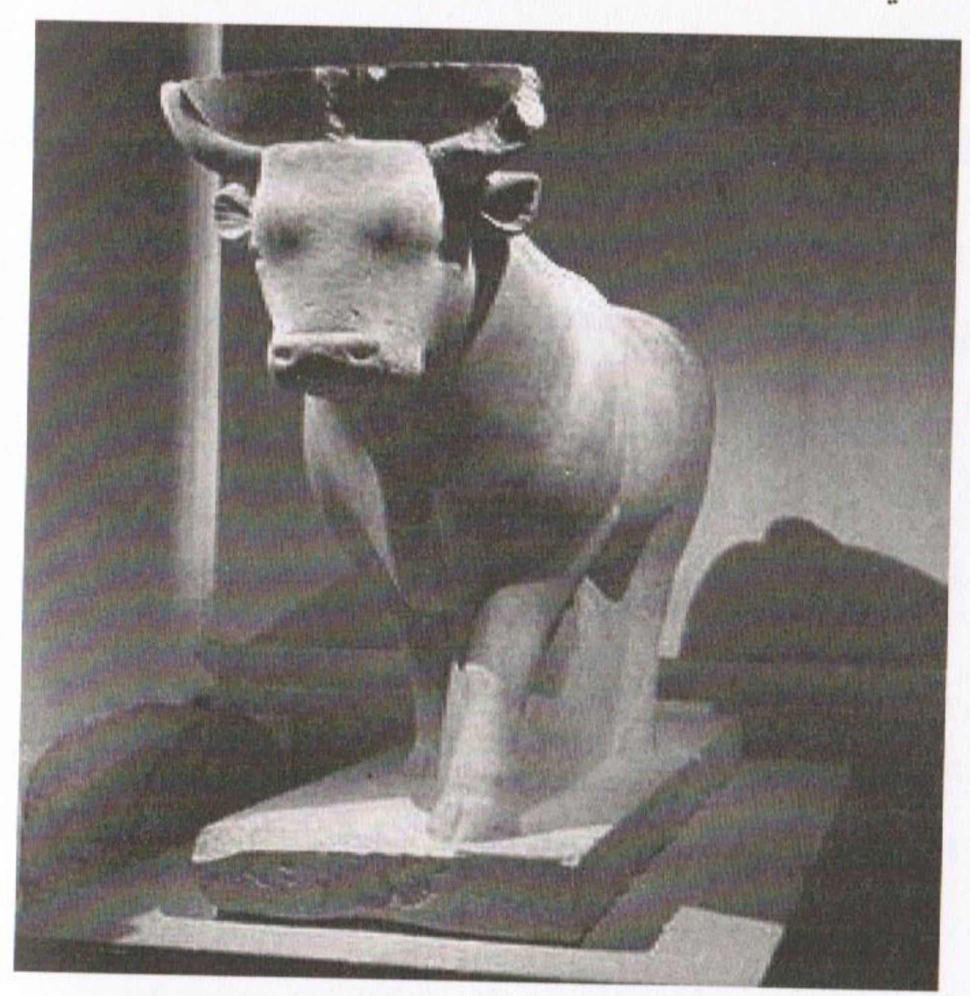
لذلك في قصة البقرة كان امتحان الله شديداً على بني إسرائيل بأن أمرهم أن يذبحوا حيواناً يعني لهم الكثير فكانت ردة فعلهم الاستنكار إذ قالوا ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾؟..

ومن هنا بدأت المماطلة في القيام بهذا الأمر(ماهي البقرة/ مالونها/ ماهي مرة أخرى)حتى ضيقوا على أنفسهم إلى أن قال الله ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة البقرة آية ٧١]..

وطبعاً قصة البقرة يؤمن بها اليهود وذُكرت بالتوراة في مواضع أشهرها في سفر التثنية في الإصحاح الحادي والعشرين.. ونستطيع ختاماً أن نقول بأن سبب تسمية سورة البقرة لايجب أن نراه من



ثقافتنا العربية تجاه البقر وإنما لدحض قدسية سابقة لهذا الحيوان لدى بني إسرائيل وتزكية نفوسهم منه..



«صورة آبيس .. أحد آلهة الفراعنة»

ثانياً: عزير.. ومن قالوا ابن الله:

قصة النبي عزير عليه السلام من القصص التي أثار اليهود الكثير من الجدل حولها لدرجة أنهم زعموا أن في القرآن خطأ بسبب ذلك..

بدأت القصة عندما أشار القرآن إلى أن اليهود جعلوا لله ولداً وذلك في سورة التوبة عندما قال الله ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [سورة التوبة آية ٣٠].. لا خلاف على ما قاله النصارى.. ولكن اليهود بحاخاماتهم مازالوا إلى يومنا هذا ينكرون ذلك فيقولون: (إن هذا مجرد خطأ في القرآن فلايوجد في بني إسرائيل نبي اسمه «عزير» من الأصل فضلاً عن أن نجعله ابن الله!! وبإمكانكم قراءة التوراة والتحقق من أن هذه المعلومة غير صحيحة وليس لها وجود وماهي إلا دليل على أن في القرآن أخطاء لاتليق بكتاب سماوي..!)

مما لاشك فيه أن الهدف من هذا الإنكار هو محاولة إحراج القرآن والطعن في مصداقيته حتى ولو كان عن طريق الكذب والتدليس.. وإلا فكيف ينكر اليهود وجود نبي لديهم في التوراة اسمه «عزرا»؟ بل إن اسمه يحمل اسم سفر كامل في التوراة وهو «سفر عزرا»؟

لا أدري لماذا يحاولون أن ينفوا أن «عزرا» هو «عزير».. والحمدلله أن الموسوعة اليهودية لديهم ذكرت ذلك في حديثها عن النبي «عزرا» بأن كتبوا فيها أن اسم «عزرا» هو اشتقاق من أصل الاسم وهو «عزير» والذي يعني باللغة الآرامية القديمة «المعين أو

المساعد»..! ولو لم يكن «عزرا» هو نفسه «عزير» لما سماه اليهود العرب في اليمن والعراق بـ «عزير»

الإشكالية التي يتشبث بها اليهود الآن هي أنهم لم يقولوا إن «عزيراً» ابن الله وأن توراتهم تؤكد ذلك.. ولكن قبل الرد على هذه الجزئية.. فلنستعرض قصة «العزير» حسب الرواية الإسلامية..

جاء في الإسلام عن قصة النبي «عزير» أنه كان ممن يحفظ التوراة وفي أحد الأيام وأثناء سفره على حماره من بابل إلى فلسطين، مر على قرية خاوية في فلسطين اسمها اليوم «العزيرية» فقال عنها ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [سورة البقرة آية ٢٥٨] نستنتج من ذلك أن الرواية الإسلامية تقول إن رحلة «عزير» من بابل إلى فلسطين استغرقت مئة عام..

عند وصول «عزير» إلى القدس في فلسطين، كان يحكمها الفرس المجوس والذين قضوا على معالم الديانة اليهودية هناك وضاعت توراة اليهود وتشتت دينهم فتعجب «عزير» من حالهم عند وصوله لهم..

ونظراً لأنه قادم من زمن آخر يسبقهم بقرنٍ من الزمان، فهو مازال يحفظ التوراة.. لذا استطاع برفقة اليهود هناك أن يعيدوا كتابة التوراة من جديد، ليكون «عزير» بذلك منقذ اليهود ومن هنا بدأ غلو اليهود بـ «عزير» وقاموا بتمجيد هذا الرجل حتى جعلوه منزلاً من السماء وأن الله أرسل أحد أبنائه لينقذهم..

أما حسب الرواية اليهودية، فتذكر التوراة في سفر «عزرا» أنه سافر من بابل إلى فلسطين وأنه كان من حفظة التوراة التي نزلت على «موسى».. ونجد هنا تطابقاً في الروايتين الإسلامية واليهودية..

الإشكال الذي وقع فيه اليهود في توراتهم كما ورد في (أطلس الكتاب المقدس) هو أن الملك «كوروش» كان يحكم فلسطين عند وصول «عزرا» بينما ملك بابل الذي أرسله هو «أرتحشستا الأول».. وهذا هو منبع الاختلاف بين علماء اليهود.. حيث إن بعضهم يقول إن الملك الذي أرسل «عزرا» هو «أرتحشستا الثاني» وليس الأول..

وطبعاً سبب الاختلاف في هذا الأمر بين علماء اليهود هو ظنهم بوجود خطأ تاريخي نظراً لأن الفرق بين ملك بابل وفلسطين حوالي المائة عام..! ولكننا كمسلمين نعرف جيداً سبب هذا الفارق بالمدة الزمنية..

وأما ما يخص قولهم بأن «عزيراً» ابن الله، فهو ما وُجد لاحقاً في توراة قديمة اسمها (Esdras 2) والتي تم حذفها بعدما تاب اليهود من قولهم هذا ولم تُعتمد في كتابهم الحالي..

لذلك كانت الحكمة الربانية عندما ذكر الله أنهم جعلوا العزير

ابناً له بأن قال ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [سورة التوبة آية ٣٠]
على عكس نبوة محمد التي قال الله عنها ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا
عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [سورة الأعراف آية ١٥٧].. لأن قولهم
عن النبي «عزير» لم يعد مكتوباً في توراتهم، بينما نبوة محمد لاتزال
مكتوبة لديهم.. ولعلهم يهتدون..!

ثالثاً: تابوت العهد:

في بداية الحديث عن التابوت، يجب أن نعرف أن كلمة تابوت
التي وردت في القرآن تعني الصندوق حسب اللغة المصرية القديمة
مثل كلمة فرعون التي تعني الملك، وكذلك كلمة يم التي تعني
البحر..

جاء ذكر كلمة «تابوت» مرتين في القرآن.. أنا هنا لن أتحدث
عن التابوت الذي ألقت فيه أم «موسى» ابنها في سورة طه ﴿أَنِ
ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [سورة طه آية ٣٩].. ولكن سأتحدث
عن تابوت آخر لايزال منذ زمن النبي «موسى» وإلى يومنا وهو
يثير الجدل حوله.. وهو ما يسميه اليهود (تابوت العهد)..

اليهود يؤمنون بما ورد في التوراة من أن الله أمر نبيه موسى ببناء
تابوت مطلي بالذهب وأن يضع فيه الأوامر والأسرار لشعب الله
المختار، وعندما خرج بنو إسرائيل من مصر إلى فلسطين واستقر
العبرانيون هناك بعد انفلاق البحر.. سلب منهم الجبّارون هذا
التابوت..

وبعد موت موسى ظل في نفوس بني إسرائيل حسرة على التابوت فهم يريدون كنزهم الذي يحمل أسفار الله وكلامه إليهم.. واستمروا إلى أن بعث الله داود..

تذكر التوراة أيضاً أن الله أمر النبي صاموئيل - وهو نبي كان موجوداً برفقة داود - بأن يختار «طالوت» كأول ملك لإسرائيل ولكن اليهود رفضوه وكذبوا أن الله اختاره..

اضطر النبي صاموئيل أن يخطب في الناس ويؤكد لهم أن الله من اختار «طالوت».. فقالوا اجعل الله يثبت ذلك.. فقال لهم حسناً سيجلب الله لكم تابوت موسى.

القرآن صادق على ما ذكر في التوراة وذلك في سورة البقرة ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [سورة البقرة ٢٤٨].

بعد ذلك خضع اليهود لحكم الملك «طالوت».. بعدما أعاد الله لهم تابوت العهد.. نستطيع أن نقول الآن بأن جميع الكتب السماوية أكدت أن التابوت في فلسطين

بعد ذلك احتفظ النبي «داود» بالتابوت معه إلى أن ورثه بعده ابنه النبي سليمان.. وفي عهد سليمان.. وضع التابوت المقدس في الهيكل (المعبد) الذي بناه.

طبعاً هنا انقطعت أخبار التابوت الذي يهم اليهود كثيراً ويحتوي على ما يؤكد حسب روايتهم أحقيتهم في أرضهم الموعودة.. ووصايا أخرى من الله كما يقولون، لذلك.. لايزال اليهود إلى يومنا هذا وهم يبحثون عنه وعن هيكل «سليمان» الذي دُفن التابوت في داخله وذلك لزعمهم أن فيه ما يؤكد أحقيتهم بفلسطين..!!

أحببت أن أوضح في هذا السرد لماذا يبحث اليهود عن هيكل سليمان.. طبعاً مشكلة اليهود هي الغرور الأعمى.. فهم إلى الآن لايؤمنون أن موسى نبينا أيضاً!

***

الخاتمة

ثق يا أيها الإنسان.. بأن العلم والعمل.. لن يأتياك يوماً على طبقٍ من ذهب.. فإن لم تسعَ أنت خلفهما.. فلا تتفاءل كثيراً في انتظار أن يأتي أحدهما أو كلاهما إليك..

فجميعنا نعلم بأن الله سبحانه قادر على أن يتم معجزاته على أنبيائه بدون أن يأمرهم بعمل أي شيء.. ولكن من يلاحظ في الآيات التي أوحى الله فيها لأنبيائه بحدوث معجزة.. فسيجد أن الله أمرهم قبل ذلك بالقيام ولو بعملٍ يسير.. كقول الله ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ [سورة ص آية ٤٢]، ﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [سورة الشعراء ٦٣]، ﴿ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [سورة الأعراف آية ١١٧]، ﴿ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ [سورة المؤمنون آية ٢٧]، ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ [سورة النمل آية ١٢]، ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ [سورة مريم ٢٥].. ولعل حكمة الله في ذلك هي أن يقرّ للناس أهمية العمل.. وبأنه لن يحدث لك شيءٌ بدون مجهود أو تعب ولو يسيراً..

فلاتنتظر أن يأتيك رزقك بدون عمل أو مجهود.. ولاتنتظر

أن يأتيك العلم من السماء.. ابدأ رحلتك في الاستكشاف وطلب العلم بنفسك.. لاتتساهل في البحث عن الحقيقة دائماً .. واسعَ خلف ما يُشبع عقلك .. وما يرضي نفسك .. وما يشفي غليلك..

ولا تتكل على أحدٍ سواك .. بعد اتكالك على ربك ... ورب موسى وهارون..!

***

الفهرس





تأليف : سلطان موسى الموسى

 @ almousa_su

www.almousasu.wordpress.com

« كنت في لندن عندما تعرضت للموقف الذي غيّر حياتي .. تحديداً حين التقيت برجلٍ من المغرب العربي في حديقة الهايد بارك الشهيرة .. سلّم علي ورحب بي رغم صغر سني وقتها مقارنةً به .. فقد كنت في الثامنة عشرة من عمري بينما كان هو في عمر أبي تقريباً وكان هو أول ملحد التقي به... »



